

التحليل النفسي والأدب

هذه ترجمة لكتاب

**PSYCHANALYSE
ET LITTE' RATURE**

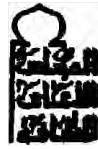
JEAN BELLEMIN - NOEL

الإشراف الفنى والغلاف: محمود القاضى

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة

التحليل النفسي والأدب

تأليف: جان بيلمان نويل
ترجمة: حسن المودن



١٩٩٧

تنبيه

إن التحليل النفسى (أقصد بذلك التيار الفرويدى)، أفضل من علم، هو فن فك سثن حقيقةٍ فى كل القطاعات الملفة فى التجربة الإنسانية، كما يعيشها الإنسان؛ أى كما «يحكيها» لآخر أو لنفسه. ولأنه لا يميز ذاتاً عن موضوع المعرفة، فهو ينفى وجود ذات محددة أو ممكنة التحديد، وموضوعات فكر ليست بعد مسكونة، وملتوية بواسطة حيل، ومبادرات، ورغائب جزء من الذات.

إنه يستند إلى نظرية وإلى ممارسة، بلا تقنيات إلزامية، بلا شفرات شفافة، وبلا نماذج مؤكدة، وبلا تصورات أحادية التكافؤ، وبلا معالم ثابتة. إنه بنيلوب P`enelope ناسجاً وفاكاً نسيج لوحته كما نصنع حياتنا.

وبناء عليه، سيكون وهماً الحديث عن التحليل النفسى من خلال تعليقات وحواش «بسيطة» هى المتداولة فى هذه السلسلة. فالقارئ لن يجد هنا قط عرضاً منظماً للمفاهيم التى يستند إليها التحليل النفسى، وهو لن يصير أكثر من ناقد يحلل نفسياً منه محللاً متمرساً. وإذا منح لجرى قراءته نظرة شاملة عن الفرضيات، والمناهج، والنتائج المعنية، وإذا تطلع إلى تعميق اهتمامه، فلن يتعب، لا هو ولا أنا دون فائدة.

(المترجم).

المقدمة:

القراءة من خلال التحليل النفسى:

«إن الشعراء والروائيين هم اعز حلفائنا وينبغى أن نقدر شهادتهم أحسن تقدير، لأنهم يعرفون أشياء بين السماء والأرض لم يتمكن بعد حكمتنا المدرسية من الحلم بها، فهم فى معرفة النفس شيوخنا، نحن الناس العاديين، لأنهم يرتوون من منابع لم يتمكن العلم بعد من بلوغها».

(س. فرويد «هذيان وأحلام» غرايڤا، جونسون، ١٩٧١م، ص ١٢٧).

لقد عمّر التحليل النفسى الآن أكثر من ثلاثة أرباع القرن؛ أى أنه أقدم من فيزياء إنشتاين النسبية ببعض السنين، ولنا كامل الحق فى أن نأمل بأن تبدو فرضياته للجميع غير قابلة للجدال، وألا يوجد بعد من يؤخذ هذه السيدة العجوز على ارتداء ملابس داخلية مغرية بقصد إغراء فاقدى البوصلة داخل مجتمع تطهّر.

وسواء قبلناه بحسن نية أو بسوءها، فإن فرويد قد ألحق بالكاثن الإنسانى ما يسميه فى مقالته «إحدى صعوبات التحليل النفسى» (ضمن مؤلفه «مقالات فى التحليل النفسى التطبيقى» ١٩١٧م) الجرح الثالث الذى يصيب «حبة لذاته». فإذا كان كوبرنيك قد أرغم الإنسان على الإقرار بأن كوكبه الصغير لم يعد مركزا للعالم، وإذا كان داروين قد أوضح بأنه ليس أكثر حظا من الحيوانات الأخرى، وأنه ليس سوى ذى أصل رائع، فإن فرويد نفسه قد بيّن أن «الأنا ليست سيدة بيتها الخاص» (ص ٤٦).

ذلك لأن قوة دفاع اللذة تتواجد فىنا إلى حد يستحيل معه الإلمام بكامل تدجينها. كما لا يخلو من أهمية أن نعرف بأن إرادتنا وذكاءنا ليسا مطلقين بما أن جزءا

كبيراً من انشطتنا الذهنية ينفلت من مراقبة الوعي، وإذا كنا منزوعين من مكانتنا السامية في الكون وفي محيطنا الحيوي، فإننا بهذه الصفة أيضاً في إطار هذه النفس التي قلّما كانت مصدراً لمجدنا ومواساتنا: هناك أشياء تفكر بداخلنا وتوجّه أفعالنا مع أفكارنا، دون حتى أن نحاط علماً بحدوث بعض الظواهر. وكون الإنسان يحسّ بأنه أصيب في عزّة نفسه - في نرجسيته - ليست هذه المسألة الأكثر أهمية، ذلك لأنه قد عرف مثل هذه الإصابات. لقد كان من الضروري أن ينتصر على كثير من المقاومات المتمثلة في التقاليد والديانات ليسرع اندمال ذلك الجرح.

لذلك، فإن جهد فرويد في هذه المسألة وأثر اكتشافه هما على جانب كبير من الأهمية، وقد برهنت حركة التحليل النفسي في بداياتها على أن الغوص في خبايا العصابي أسهل من رفض الأحكام المسبقة المتفوقة على التقديرات العلمية والانطباعات الصالونية، ذلك لأن رقابات الإيديولوجية أكثر فعالية وعناء من الكبت الموجود داخل كل فرد، وضغوطات العائلة والمدرسة والدين والمؤسسات وثقل المجتمع المنظم داخل اقتصاد معين وثقل الفلسفة السائدة، أو ما يُسمّى بالتجربة، أو امتلاك «الحسّ السليم» المعقول والعقلاني، لكنه أبدا عاجز عن التفكير. كل هذا نحن ضحاياه ومستفيدون منه في الوقت نفسه، فنحن عميان لأننا مغمرون، وانتهازيون لأننا معميون. وكل هذا يسكن في دواخلنا في فكرنا ولغتنا.

أما العنصر الثاني من ثنائيتنا فهو الأدب. هذا الذي عن طريقه نعي إنسانيتنا التي تفكر وتتكلم؛ لأن اللغة التي اكتسبناها من خلال علاقاتنا اليومية مع أبنائنا وأقاربنا لا تصلح إلا للفعل: طلب شيء أو الاستجابة له من أجل العيش. وإجمالاً فشئٍ فقط كالأدب (وقد كان شفوياً في العصور والحضارات التي لم تعرف الكتابة) يمكن للإنسان أن يسائل نفسه وقدره الكوني واشتغاله الاجتماعي والذهني. إنّ تصورات «النبيلة» ورؤيته للعالم تترسّخ باحتكاكها بالأساطير - أي ما تنبغى قراءته - وبالخرافات الدينية والملاحم المدنسة والمحكيات النموذجية والقصص والمسرح والاعترافات المؤثرة نثراً كانت أو شعراً.

وإذا كان الكلام يأتينا من الخارج، بعيداً أو قريباً في الغياب، ويأتي من زمن آخر،

من زمن قديم أو حديث: ولا يأتينا أبداً من هنا والآن حيث يكفى الكلام.

لكنّ الأدب شيء آخر غير هذا الجسد المحنط قليلاً أو كثيراً بأفكار جاهزة تكونت خارج السياق الراهن الذى يتجادل فيه كل واحد: فالأدب ليس فقط مجموع خطابات مدونة قبلنا أو بعيداً عنا، بل هو أيضاً خطاب مُتفرد. وكثيراً ما رأيناه وافتقدناه «مُجدياً ورائعاً»، فجدواه تتجلى فى إمتاعنا، وروعته فى بقائه غير صالح للاستعمال قصد الاستمرار فى الحياة، فالخطاب الأدبى يعنى خطاباً زائفاً عن الواقع، ومن هنا سحره ومأساته وحظه العجيب.

إن فهم المؤلفات التى تُشكّل جزءاً من الأدب، والتى تتراكم شيئاً فشيئاً لتشكيل ميدان صلب تاركة الغبار يتطاير من ريح اللاجوهري، لينسرب الرمل على منحدر النافع - وهو ما نسميه الكلام المتداول والكتابات الديداكتيكية - ذلك أن إيجاد الأسباب التى تجعل هذه المؤلفات تتجاوز مؤلفيها وعصرها ودائرتها اللغوية، هى أمور لن يتم تحقيقها فى يوم واحد ومثل الاعتراف بالتحليل النفسى وإلى حد ما بفضلها فإن تهمين أصالة ما هو أدبى قد تتطلب عملاً شاقاً. نكتفى بالقول بأنه تحتم قبول فكرة لغة أخرى لم تكن تقول فقط، وبالضبط، ولا بكيفية حقيقية ما كان يبدو أنها تقوله. وكما أن النفسى لم يكن نوعاً من الكتلة الموحدة المشتملة على تدرجات وتوزيعات للاختصاصات، فإن كتابة الروائع الأدبية لا يمكن إدماجها فى نقل رسالة محملة بمعنى واحد واضح، ذلك أن الكلمات المتداولة عندما تجمع بطريقة معينة، تكتسب سلطة الإيحاء باللامتوقع وبالمجهول، ومن ثم فإن الكتاب هم أناس، عند الكتابة، يتحدثون بدون علمهم أشياء هم لا يعرفونها بدقة. إن القصيدة تعرف أكثر من الشاعر.

وإذا كان المعنى فائضاً فى النص، فإنه يوجد فى مكان ما نقصان فى الوعى. والحدث الأدبى لا يحيا إلا إذا انطوى فى نفسه على جزء من انعدام الوعى أو من اللاوعى نفسه. أما مهمة النقد فى كل الأزمنة فهى الكشف عن هذا النقصان أو هذا الفيض. وبصفة عامة، بما أن الأدب يحتوى فى دواخله على شيء من اللاشعور، فإننا سننجذب إلى التقريب بينهما إلى حدّ المزج. إن مجموع الآثار

الادبية تقدم وجهة نظر واقع الإنسان ووسطه، كما تقدمها حول الكيفية التي يدرك بها الإنسان فى الوقت نفسه هذا الوسط والروابط التي يقيمها معه. إن هذه المجموعة من الآثار هى سلسلة من الخطابات وهى تصور للعالم: صادرة عن عنصر واحد ماسك بالنصوص وبالثقافة فى أن. وتيار التحليل النفسى يتقدم بطريقة مماثلة: إنه جهاز مفاهيمى يعيد تشكيل العمق النفسى، ويشيد نماذج لفك الشفرة. وإذا كان جسد النص والتجويف النظرى ينتميان إلى أنظمة الواقع المختلفة (المواد الخام فى مقابل وسائل التحرر)، فلا ينبغي أن نغض الطرف عن أن رؤية العالم من خلال الآداب الجميلة والتقاط تأثيرات اللاشعور يشتغلان بنفس الطريقة: فهما نوعان من التفسير، وطريقتان للقراءة، لنقل إنهما قراءتان. ذلك لأن الأدب والتحليل النفسى «يقراءن» الإنسان فى حياته اليومية وداخل قدره التاريخى. وبشكل أكثر عمقا، يتجلى قاسمهما المشترك فى كونهما ينفيان كل لغة واصفة من مجاليهما: إذ ليس هناك فرق بين الخطاب الذى يستند إليهما وبين الخطابات التى تكونهما. فنحن نعرف أننا لن نتمكن أبدا من الانفصال عما نقوله، ومع ذلك فإننا نرسم هدفا يرمى إلى التوصل إلى حقائق بالحديث عن الإنسان وهو يتحدث.

إن اكتشاف اللاشعور وسائل مرة أخرى المعرفة التى نملكها عن النفس البشرية، أى تلك المعرفة التى نعيش بها فى كل دقيقة - فما كتب وما زال يكتب وما أقرأه مخترق، دون علمى، من طرف طاقات هائلة (ومخترقة): فماذا عن قراءتى اليوم؟ ومن جهة أخرى، يؤثر التحليل النفسى على اللغة باعتبارها موصلة للحقيقة وللاستلاب داخل الروابط القائمة بين الأشخاص وفى داخل الشخص نفسه: ماذا يعلمنى التحليل النفسى عن موطن هذا التمرين المتميز للغة والذى هو مجموع الأدب، حيث يعبر الواقع السرى للفرد عن نفسه أحسن تعبير؟ هذه أسئلة محتملة. فى هذه الحالة تصبح غاية البحث على هذا الشكل: القيام بوصف المبادئ، وجرد الوسائل التى قدمها لنا التحليل النفسى لإنجاز أفضل قراءة للأدب.

سيكون علينا، إذن، أن نستكشف، ليس فقط فى تنوعها بل فى تاريخها، مختلف التوجهات لما يمكن تسميته بنوع من التعميم «المقاربة النفسانية للحقل الأدبى». ذلك

أن كل واحدة من تلك المقاربات قد ترعرعت فى لحظة مختلفة وبحظوظ متباينة وكثافات متغيرة.

بعد أن ننتهى من تقديم محاولات فرويد حسب ترتيب ظهورها، سنستعرض التفريعات والنتائج التى قدّمتها إلى حدود العصر الحالى. وسيكون هدفنا محققاً إذا كان لدى الفضوليين، من هذه السلسلة (*) التى تؤثر فى جمهور واسع، ميل يكاد يكون شاملاً إلى صيغ تدخل المنظور النفسانى تجاه المظاهر المتعددة التى من خلالها يكون الأدب حاضراً، حياً، فعلاً بالنسبة إلى فئة من الناس نتمنى أن يزداد اتساعها.

وفى الختام، نستحضر إحدى عبارات فرويد التى لا تخلو من طرافة:
«إن العمل التحليلى محفوف بالهشاشة والمعاناة، بحيث لا يمكن استخدامه كما النظّارة التى تلبسها عند القراءة ونخلعها عند الذهاب إلى النزهة».

(س فرويد - محاضرات جديدة فى التحليل النفسى - ١٩٧١، ص ٢٠١).
لنخرج، إذن، إلى النزهة بحثاً، إن لم يكن عن أفضل نظّارة للقراءة، فلا أقل من البحث عن أحسن نظّارة من أجل قراءة أفضل.

(*) سلسلة «ماذا أعرف؟ Que sais je» التى نشر بها هذا الكتاب

الفصل الأول القراءة مع فرويد

«بعد استكشاف الأحلام، انطلقنا إلى تحليل الإبداعات الشعرية أولاً، ثم الشعراء والفنانين بعد ذلك (....) إنها المشاكل الأكثر سحراً من كل تلك التي تتلاءم مع تطبيقات التحليل النفسى».

(س. فرويد - خمسة دروس فى التحليل النفسى - ١٩٧١م، ص ١١١ - ١١٢).

بداية هذه طُرفة، قد تكون باطلة أو صحيحة، إلا أنها صائبة. لقد حدث أن ردّ مؤسس التحليل النفسى على أحدِهِم بعد أن سأله عن أساتذته بحركة مشيراً إلى رفوف خزانته حيث تظهر روائع الأدب العالمى.

لقد كان فرويد مولعاً بكل أنواع الأدب: كان قارئاً كبيراً كما كان قارئاً نافذاً، وثقافته هى التى كانت منذ مائة سنة مقررّة فى التعليم الثانوى بالنمسا. هى ثقافة كلاسيكية، لكنها أكثر تنوعاً وأكثر عالمية وأكثر عمومية من نظيرتها فى فرنسا. وعلى سبيل التمثيل، فالأسماء التى تستحضرها ريشته أغلب الأحيان هى أسماء مؤلفين كانت قد صارت مشهورة حوالى ١٨٧٠م: أرسطوفان، بوكاس، سرفانتس، ديدرو، جوته، هيبيل، هين، هيزود، هوفمان، هومير، هوراس، لوتاس، ميلتون، مولير، رابليه، شيلر، شكسبير، سوفوكل، سوفيت، وبالنسبة إلى الكتاب المعاصرين: دوستوفسكى، فلوبير، أناتول فرانس، إبسن، كبلين، توماس مان، نيتشه (١)، شوبنهاور، برناردشو، مارك توين، أوسكار وايلد، زولا، استيفان زويج. وما يستخلصه من قراءاته هو، أولاً، تلك الصيغ الناجحة التى طبعت ذاكرته التى سمحت له بترصيع نصّه بشواهد، تبعاً لما تقتضيه الكتابة الجيدة فى زمنه. إنها بالأخص معرفة بالدوافع التى تسيّر الناس، أولاً عن طريق تشبّع (هذا الرأس مال من

الحكمة والتجربة العميقتين الذى نكتسبه كلنا من خلال الاحتكاك بالآثار التمثيلية)، ثم بالدخول بمبادرة منه إلى مدرسة العباقرة الذين سبقوه دون علم منهم إلى طريق الاكتشافات النفسية الكبرى.

لهذا، غالباً ما نراه يكشف اعتقاده الراسخ بأن النصوص التى تُعدّ خالدة قادرة على أن تكون مُوجّهات، هكذا:

«ويتضح - وعلى كل حال، فهذا ما يعرفه الروائيون والعارفون بالقلب الإنسانى منذ القدم - أن انطباعات هذه المرحلة الأولى من الحياتى تترك أثراً يتعذر محوها (... إلخ)» (حياتى والتحليل النفسى - فرويد، ١٩٧٠، ص ٤٢).

لقد كان فرويد مبهوراً ببعد نظر هذه العقول الخارقة التى لا تملك وسائل التحليل، متأثراً بنظراتها، أوصافاً ومحكياتٍ، لكنه ليس مبهوراً إلى حد العمى. بالعكس، لقد كان يبحثُ على الفهم، ومن هنا قوة أبحاثه وجهوده باتجاه تطبيق منهجه العلمى^(٢)، الذى ابتكره شيئاً فشيئاً، على اللغز الذى سبق له تقريباً أن أضاعه.

١ - ماذا يعنى «تطبيق» التحليل النفسى؟

لا ينبغى أن يؤدى مصطلح التطبيق إلى تفسير معكوس. فهو عادة ما يشير إلى ما يُستعمل فى ميدان معين من مبادئ ووسائل بحث تنتمى إلى حقل معرفة مغاير، تبعاً للحالة المسماة «علماً أساسياً أو علماً ملحقاً».

هكذا، نعلم إلى الرياضيات فى كل العلوم الدقيقة، وحتى فى بعض العلوم الإنسانية (الإحصائيات مثلاً)، أو أننا نستعمل كيمياء الإشعاعات فى علم الآثار وعلم الإحاثة باستخدام الكربون ١٤، من أجل تاريخ حَجَرٍ منحوت أو خَزَفَةٍ قديمة. والحال أنه فى هذه الحالة التى نشغل بها، فإن الأمر ليس نمطاً من أنماط الحساب أو جهازاً للقياس ينتمى إلى نظام مختص بالكمية، بل هو نفس شبكة التفسير التى ينبغى أن تصلح لفكّ سَنَنِ الظواهر الإنسانية التى تبدو مُتباعدة جداً عن بعضها البعض (وينبغى أولاً أن نثبت أنها ليست حقاً متنافرة). إن أكبر ابتكار فى نظرية اللاشعور إثباته أن الفصل بين مختلف أنشطة ومواقف الإنسان قد كان اصطناعياً.

ما إن يتضح وجود اتصال بين الطفل والبالغ، بين «البدائي» و«المتحضر»، بين الخارق والمألوف، بين المرضى والعادى، فإننا سنرى الحفرة تُردَّم دفعة واحدة وهى التى كانت تمسك على انفراد كل واحد من الإنتاجات من مثل العرض والحكايات العجائبية ومُحرّمات العشائر البولينية وتنظيم الألعاب وحمولتها عند الصبى الصغير أو الصبية الصغيرة. يوجد أَسُّ مشترك - نقصد الميكانيكية المعقدة للغرائز، وأنماط الكتب، وجِئِل الرغبة الجنسية - بين السلوكات الشاذة والمألوفة لمختلف أصناف الأفراد ومراحل العمر وأصناف الجماعات التى نلقاها على وجه البسيطة. إن الحلم واللعبة والطقس والتداعى السرى والخرافة والأسطورة والحكاية والملحمة والعُدَيّة والرواية والدعاية وسحر قصيدة ما، كلها لا تشكل موضوعات منفصلة للدراسة إلا بالنسبة إلى الاختصاصيين الذين يعتقدون أنهم يشتغلون على مواد خام متنافرة. فانطلاقاً من لحظة اعتبار هذه الظواهر الإنسانية على أنها، إلى حدٍ ما، من إنجازات نفس اللاشعور (المقصود به هنا ذلك النظام كما هو، لا تنظيمها فردياً) سيصير مشروعاً أن يشتغل بها المفسر نفسه. ذلك لأن تطبيق التحليل النفسى على قسم من الموضوعات النفسية الخاصة يعنى ملاحظة الطريقة التى تظهر بها الرغبة عبر المواد الخام والسباقات والأعضاء والمؤسسات والمعطيات الثقافية التى يتعدّر تبسيطها لكنها تخضع للقوانين نفسها.

ليس لكلمة التطبيق هنا معنى يطابق المعانى التى يتلقّاها فى موضع آخر، والأمر لا يتعلق بعملية استيراد - تصدير مع علم مجاور، ولا بالأحرى بإبعاد التحليل النفسى إلى أى مكان، طوعاً أو كرهاً، فتحليل العمليات اللاشعورية مدعو إلى التدخل فى كل مكان يشتغل فيه «الخيال»، يعنى الانفعالات وعمل التخيل، وبشكل أوسع عمل التمثيل والمؤثرات الرمزية. ويمكن لهذا التحليل أن يعتبر نفسه فعالاً كلما انقلب الإنسان على نفسه، وكلما تجاوز نشاطه المعرفى ما هو أكسيومى وفيزيائى وتقنى من أجل الاهتمام بالمظاهر «المللموسة» للوجود والتاريخ والمجتمع والفرد. وينبغى أن نتابع فى هذا الشأن: يعمل الرياضى بالأعداد والتوافيق، ويلاحظ الفلكى ما يجرى فى اللامحدود الكبير، والفيزيائى يلاحظ ما يجرى فى اللامحدود

الصغير، والمهندس يهتم بالفعالية المثمرة، لكنهم ليسوا، عندما يتخلصون من اختصاصهم، إلا بشراً، أما فرويد فهو، بنظّارته التي لا تفارقه، ينظر إلى الناس وهم يعملون، كما يدرسهم وهم خارج العمل، وهي لا تغرب عن باله عندما يستريح ذهنه أو عندما ينتقل من شيء إلى آخر. إن النظّارة لا يخاطر أبداً بوضعها بما أنه يخصّص وقته لفكّ سننِ نصّ الأدمى: وإجمالاً، فهو لا يكفّ عن القراءة!

٢ - درس فى القراءة:

وبالأحرى عندما يكون بصدد قراءة كتاب فهو لا يكفّ عن التصرّف محلّلاً، إنه يصفى إلى ما يسمعه من النص المكتوب. إلا أننا سنخطئ إذا تصورنا قارئاً «ما بين السطور» متأملاً بإبهام ما يمكن أن يوحى به ذلك أو ما يمكن أن يذكره به. لم يكن نبيا ولا صاحب أفكار - نحيل بهذا الخصوص إلى سارة كوفمان فى طفولة الفن - بل كان مفسراً، دائم الانتباه إلى الكلمات، إلى الجمل، إلى اللغة. لقد قيل إنه كان يحب الاستشهاد (إلى حد أنه يستشهد كثيراً بصيغه الخاصة). وبعيدا عن أن يكون ذلك من موضحة العصر، فقد كان دليلاً على الأهمية التي يعلقها، لا فقط على «فكر» الملفوظات التي يعرض لها بل وعلى حرفيتها. سنعود إلى الطابع النموذجي لهذا الموقف وإلى أسبابه ونتائجه، أما الآن فلنقل إن هذا الاهتمام بالحرفى قد جنّبه السقوط فى الميتافيزيقا، والوقوع فى تصوف يستحيل إمساكه نظرياً. فـ «يونج» مثلاً، لم يحافظ على هذه الصرامة القيّمة، وكان من الضروري أن نفهمه منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى بأنه ينحرف نحو شكل جديد من علم النفس لا يستحق عنوان التحليل النفسى.

فمن ناحية التكوين، كان المعلّم القيينى طبيباً مبطناً بعالم، وكان يمتنع عن أن يشتهر وأن يعتبر نفسه فيلسوفاً: كانت تستوقفه الأفعال أولاً، وبعدها التشييدات فى نطاق عرضها للأفعال، ولا لشيء غيرها. إن الانتباه إلى الجزئيات متعايش مع منهج علمى حريص على سماع أقوال المريض الكاملة وتذوق الخطاب الوجيز للكتاب. عندما نعمد إلى الاستكمال من الخارج، نقع فى الهوة ونصير شراً حاكماً وكهنة وعرفانى القرية. ماذا ستشبهه مأساة «أوديب - الملك» لو انتهت عند حدّ الكشف عن

مرتكب المحارم وعند عقاب ما للباطل؟ من المهم أن ننتبه، ونحن نقف على خطورة الخطأ الذى ارتكبه - «عن لا وعى» لأن وحى الآلهة ليس أوضح من العَرَض - إلى كونه لم يذهب إلى حد الانتحار أو الحكم على نفسه بالسجن مدى الحياة؛ بواسطة سفود مسروق من چوكاست فقاً عينيه لكى يعاقب نفسه «هناك حيث ارتكب إثماً». وطبعاً، فهو بهذا يخصى نفسه لكن رمزياً، بقلب إشارات الجريمة نفسها بما أن شيئاً ما من الأم - الزوجة هو الذى أصابه فى ذلك الموضع الأكثر حيوية فيه، «بؤبؤ عينيه»، والذى عن طريقه بالضبط اشتهى مفاتها الأنثوية، أبموت الرغبة يدفع أوديب الثمن الحقيقى لأجل أن يعيش بعد ذلك فى الألم والحداد، بدل إغراق نفسه، كما تمنى ذلك فى لحظة من اللحظات، فى البحر - حيث كان سيتذوق البركة المضاعفة بالالتحاق بالأم وإدراك الموت (٣) وفرويد هنا لا يحتل مكان الدليفة La pythie التى تتنبأ موحى إليها من أبولون Apollon، بل إنه فى مكان مساعدتها (يسميه اللاتينيون مفسراً Interpreter)، الوسيط الذى يتوسط بين كلام الله إليهم وأذن المستشار؛ فهو يأخذ مكانه بين ما يظهره بدقة المؤلف التراچيدى وما يجوز لنا إدراكه فيه مع إقامة الوزن للبنيات اللاشعورية التى تظهر والدفعات الليبيدية التى تشق طريقها بالرغم من معارضة الرقابة.

ليس قصدنا الآن مناقشة قيمة أى فكّ لسننها، ليس أكثر من مناقشة مشروعية «إخضاع» أسطورة مقدمة من خلال قصيدة درامية لقراءة تفسيرية من النوع التحليلي بدل إخضاعها لشرح تاويلي anagogique أو لنقل ايدىولوجي. ينبغى أن نشدد على القراءة بنظارة فرويد، فهى قراءة داخل الأثر الادبى، باعتباره نشاط كائن إنسانى، وباعتباره نتيجة هذا النشاط، لما يقوله دون أن يظهره لأنه يجهله، هى قراءة ما يُخفيه من خلال ما يُظهره لأنه يظهره من خلال هذا الخطاب، بدلاً من أى خطاب آخر. ولا شئ مجانى، فالكل يدلّ وما يستثير فرويد هو قذائف اللاشعور. إن النص بلا علم منه ولا قصد كتابة مرموزة يمكن وينبغى فكّ سننها - لماذا؟ أولاً وطبعاً، من أجل مساعدة المحلّل النفسى على التحكم فى مناهجه فى «الترجمة» (التي ليس لها علاقة كبيرة بعمل المترجم بالمعنى العادى كما سنرى) وعلى تثبيت

مسلماته النظرية بمراجعة قيمتها الكونية؛ وهذا مكسب حقيقى للمعرفة التى يملكها الإنسان عن نفسه. لكن على الأخص، فيما يهمننا، من أجل أن يساعد التحليل النفسى القراءة على إنتاج تام لحقيقة الخطاب الأدبى، على تعيين بعد جديد للقطاع الجمالى، على إسماع كلام آخر بحيث إن الأدب لا يحدثنا فقط عن الآخرين بل وعن الآخر فينا.

إنّ التفسير يقود إلى نمط من الفائدة متميز كلية. وبما أن الأمر يتعلق هنا بعمل، فإننا نحب أن نقول مع أنفسنا إنه سيحصل على جزاء، وأول ما يدخل فى الحساب إنشباع فى الفهم (ولو فى الوهم، ينبغى أن نعترف بذلك)، هذا الابتهاج باكتشافنا السرّ، وإدراكنا رغم الصعوبات معنى من اليقين أنه ممتنع، سيرى التحليل النفسى فى هذا صدقاً للفضولات القديمة عند الطفل إزاء كل ما له فى صمت الآباء والأجساد علاقة باختلاف الجنس والأجيال وبلغز الولادة وببواعث اللذة أو الممنوعات. إنه ابتهاج، وإن لم يكن لا شعورياً، فجذوره تغوص فى أقدم الانفعالات المنسية، ويتلاقى بلا شك مع ابتهاج آخر أقل وضوحاً هو ذاك الذى يغذّيه حصول التبادل بين اللاشعورات.

إن سلسلة الإنتاجات المتخيّلة التى من داخلها تقوم الرغبة بتشغيل بنياتها ليست خصبة إلى ما لا نهاية، بما أن ثيماتها تقتصر على التنظيمات الأولية (الشفوية، الشرجية، الفالوسية وبدائها) وعلى مثلث أوديب البسيط والمعقد فى الوقت نفسه. هكذا، إذن، يمكننا أن نتصور أن لا شعور القارئ يستثمر التسهيلات المقدمة لتحريك الكبت، من جهة، بالاندماج فى الاستيهامات التى يسبرها، ومن جهة أخرى، بالتعرف عند الآخر على الحيل والمهارة التى تساعد على أفضل خداع لرقابته الخاصة. ربما أنه نوع من التواطؤ تتبادل فيه المشاهد النموذجية ووصفات الإخراج. والمصدر الثالث للمتعة، مع استمرار المصادر السابقة الذكر، هو نوع من الوضع التحويلى الذى يبدو أنه يتأسس عند معاشرة نص ما، نص قادر على إحداث تقمصات وعلى تحريك استثمارات انفعالية قوية وعلى فرض نوع من الإغراء على الذات. وكل هذه الأشياء (التي لها الفضل فى اعتياد القارئ على لغة

أكثر تقنية) ستتاح لنا الفرصة للعودة إليها. إن التعلق الذي نحسه إزاء كتاب ما، على الأقل أثناء قراءته، «يمتص كل قدرات الروح»، كما سبق أن قال باسكال: إنه تقريباً فعل حبّ. وسواء شعرنا بها بوضوح أو لا، فإن الروابط التي تتأسس تسمح بتحريك فى الاتجاهين، فلا شعورى الخاص يحول رؤيتى عما أقرأه وما يضعه الكتاب فى الظل هو ما يغذى فى داخلى أحلام يقظة تتخذ لونا لا منتظرا. وطبعاً، فالقراءة ليست معالجة كينيكية، لكن يمكن أن نتذكر أنه فى المعالجة الكينيكية يحدثنى المحلل ويساعدنى فى صمت على قراءة هذا النص الذى تكتبه طمانينتى على الأريكة وتقدمه إلينا معاً.

٣. الكتابات الفرويدية:

لقد جنى فرويد الشيء الكثير من قراءاته كإنسان فاضل. لقد خبر متع كل القراء، وحتى متع هذا القارئ الأكثر انتباهاً الذى ينصت فى الكتاب إلى اللاشعور (بإعادة تشغيل الاستيهامات وبتثمين العمل)، لكن إضافة إلى هذا، فهو يبنى أثناء القراءة التوجيهات التى تهتم بحثه، كذلك البراهين التى تثبت صلاحية وخصوصية فرضياته (٤).

ويعرف كل من له فكرة عن تأليف فرويد أنه كتب عن الفنانين والكتاب، وعن الظواهر الأدبية والمؤلفات المتميزة. لهذا، سنقدم فى الحين قائمة بأهم كتبه ومقالاته التى كرسها بالخصوص لهذه المشاكل، مع الإشارة إلى أن حجم الطبعة الفرنسية يكون فيها النص سهل المنال، وإلى أننا نتبع الترتيب الكرونولوجى.

- ١٩٠٧م: «هذيان وأحلام» غراديقاً، جونسون.

- ١٩٠٨م: «الإبداع الأدبى وحلم اليقظة» (وأحسن عنوان سيكون: الشاعر والخيال، «ضمن مؤلف: «مقالات فى التحليل النفسى التطبيقي»).

- ١٩١٠م: «ذكرى من طفولة ليوناردو فانشى».

- ١٩١٣م: «ثيمة العلب الثلاث» («اختيار العلب»). «ضمن مؤلف: «مقالات فى التحليل النفسى التطبيقي».

- ١٩١٤م: «موسى - ميشال أنج» (ضمن «مقالات فى التحليل النفسى

التطبيقي»).

- ١٩١٦م: «بعض النماذج من طبائع مستخرجة من طرف التحليل النفسى» (ضمن مؤلف: مقالات فى التحليل النفسى التطبيقي).

١٩١٧م: «ذكرى من الطفولة فى - Dichtung und wahrheit لجوته - (ضمن مؤلف: «مقالات فى التحليل النفسى التطبيقي»).

- ١٩١٩م: «الغربة المقلقة» (ضمن «مقالات فى التحليل النفسى التطبيقي»).

- ١٩٢٨م: «دوستوفسكى وقاتل والديه».

يصرح المؤلف فى كتاب أوتويوغرافى؛ وهو يقدم إمكانات نظريته فى إطار ما يُسمى اليوم بالأبحاث المتعددة المذاهب: بأن «أغلب تطبيقات هذا التحليل قد بدأت بأعمالى الخاصة» (ضمن مؤلفه: «حياتى والتحليل النفسى»، ص ١٧٩). ويكون لهذه الجملة رنين خاص عندما نحصرها فى حقل الدراسات الأدبية، لأنه من الواضح أن فرويد قد شق الطريق فى هذا الميدان أمام كل أنماط المقاربة، من دراسة للانفعال الجمالى والإبداعية الفنية إلى قراءة نص واحد مروراً بتحليل الأجناس والحوافز والكتاب. ونحن سننطلق من أعماله كلما أردنا دراسة تطورها عبر مَنْ استندوا إليه من محللين أو نقاد الأدب.

ويبقى أن نبدي بعض الملاحظات بخصوص أعمال هذا القارئ النموذجى. والملاحظة الأولى تهم حالة الاهتمام المتواصل فى كتاباته النظرية والتقنية، بالاستناد إلى الأسماء الكبيرة والعناوين الكبرى فى الأدب العالمى. هكذا خضعت حالة أوديب للدراسة طوال حياة فرويد، فى واقعها الأدبى كما فى مركبها النووى، ابتداء من رسالته إلى فليس يوم ١٥ أكتوبر ١٨٩٧م وصولاً إلى «مختصر التحليل النفسى» (١٩٢٨م). وتوضح الملاحظة الثانية أنه فى مناسبة خاصة أنجز فرويد تحليلاً كينيكيًا لذهانى بالاشتغال فقط على كتاب أوتويوغرافى مكتوب من طرف هذا الذهانى: الرئيس المشهور شريير («خمسة دروس فى التحليل النفسى»).

الثالثة أن فرويد كان بلا شك يفضل تفضيلاً مؤكداً نصوص الكتاب بحيث تكون

الكتابة مخترقة و«مشتغلة» بشكل زائد. ولهذا لم يذهب نسبياً بعيداً بأبحاثه حول الميثولوجيات والفولكلور. لقد أوكل فرويد هذه العناية من جهة لأوتورانك، ومن جهة أخرى لتيودور رايك وجيزا روجيم - («حياتى والتحليل النفسى» (ص ٨٥ - ٨٦). هكذا، نجد تحليلات «الطوطم والتابو» تنطلق من الوثائق الإثنوغرافية بالدرجة الأولى بشكل أقل مما تنطلق من التأليفات والشروحات التى اقترحها الأنثروبولوجى فرايزر.

وختاماً، فإن القائمة أعلاه قد تركت جانباً صنفاً من المؤلفات لا يدور بشكل ظاهر حول الموضوعات «الأدبية»، لكنه ذو إسهامات جوهرية بالنسبة إلى مجموع الفكر الفرويدى المتعلق بعلاقات اللاشعور باللغة، وقد تم تحرير ونشر ثلاثة من هذه المؤلفات قبل الشروع فى تطبيق التحليل النفسى على الأدب، وهى تعرض للحلم والهفوات والنُكت. ويحدث كل شئ كأن مؤلفها قد اعتاد فيها القراءة، بتحديد شروط قراءة عميقة. أقل ما يمكن أن نفعله هو أن نضع أنفسنا تحت إدارته فى المدرسة نفسها.

هوامش الفصل الأول:

(١) وهنا نقول ونكرّر بأن بينهما قواسم مشتركة إلى حد أنه يفضل ألا يصاحبه «كثيراً» حتى يحافظ حفاظاً تاماً على أصالة فكره الخاص.

(٢) بخصوص مشكل «التطبيق» نحيل إلى:

Mireille Cifali - 'Freud Pe'dagogue?' - Inter - editions, 1982

(٣) فضلاً عن أن سوفوكل يدفع أوديب إلى الكلام بطريقة تجعلنا نظن أنه يعرف الحقيقة، فالكل في ثيبث Thebe's يتحدث عن المدنيين قاتلى لايوس، أما أوديب فهو يتحدث عن «الإثم»، والكل يطالب برؤوس المسؤولين عن الطاعون ووجده أوديب من يبحث عن «المجرم» إنه توقع دالّ، إنها مفة فاضحة، نحيل إلى:

Driek VAN DER STERREN - Oedipe - (1948) - ed. Francaise 1976, p49.

(٤) لنقدر، إذن، هذه الملاحظة «إن الاهتمام بالتحليل النفسى قد عرف انطلاقاته فى فرنسا مع رجال الآداب....» (وحياتى والتحليل النفسى، ص ٧٩).

الفصل الثانى قراءة اللاشعور

«الفن هو المجال الوحيد الذى تصان فيه كل قوة الأفكار إلى يومنا هذا . ففى الفن فقط يحدث للإنسان، المعذب برغباته، أن يحقق شيئاً شبيهها بالإشباع، وبفضل الوهم الفنى، تولد هذه اللعبة الآثار الانفعالية نفسها، كان الأمر يتعلق بشيء من الواقع. لقد صدق من تحدث عن سحر الفن وقارن الفنان بالساحر».

(س. فرويد - الطوطم والتابو - ص ١٠٦)

إن الحلم هو «الطريق الملكى الذى يقود إلى اللاوعى. وقد كان هذا صحيحاً من الناحية التاريخية، أو هو كذلك تقريباً، بما أن «تفسير الأحلام» (١) هو أول كتاب يظهر موقعاً من طرف فرويد لا غير. ومن المثير أن يظهر هذا الكتاب (فى أقل عدد) على رفوف المكتبات خلال الأسابيع الأخيرة من القرن التاسع عشر. وهذا صحيح أيضاً بما أن الأحلام كانت قد احتلت المكانة الأولية فى إظهار أول تحليل، التحليل الذاتى لفرويد: إن جزءاً مهماً من الوثائق المستعملة تصدر عن الحالم الذى يعرفه فرويد جيداً، والذى كان دوماً فى متناول يديه. ويبقى هذا صحيحاً إلى يومنا هذا بما أن المحللين يدعون المحللين (٣) وقت المعالجة إلى حفظ وتسجيل أحلامهم (الليلية) كما أحلام يقظتهم (النهارية)، من أجل حكيها خلال الجلسات لتكون مادة للعمل تسمح بالنفاذ إلى رغباتهم المكبوتة.

وفى الواقع، فإن فرويد قد أدرك فى وقت مبكر أن الحلم يمثل الإنجاز المتنكر لرغبة منسية - أو على الأقل محاولة إنجاز - الذى يأتى لينضاف إلى تحقيق أمنية أكثر راهنية، باستعمال عناصر وأحداث اليوم السابق، ويتساءله عن الأسباب التى تجعل الأمنيات السرية (التفكير المستتر) تتحول لتؤلف هذه القصة بلا رأس ولا

مؤخرة، هذه السلسلة الغريبة من الصور والأفعال والأقوال التي نعرفها جميعاً (المحتوى الظاهر)، كان فرويد قد توجه إلى وضع الحلم فى نفس مستوى العرض، بحثاً له عن أصل، عن قيمة، عن دلالة أخرى غير تلك التى تضمن حماية النوم (الضرورة البيولوجية). ولهذا تستند نظرية اللاشعور كلها، من الخيط إلى الإبرة، إلى وصف بعض الميكانيكات الدقيقة. والحال أن الحلم الذى يعالجه المحلل هو المحكى الذى ينتجه الحالم فى حالة اليقظة، بدءاً من اللحظة التى يسترد فيها وعيه؛ فما رأيناه وسمعناه وتحملناه وتكبدناه بل وما فكرنا فيه أحياناً، فى غصون وضع أقل تيقظاً، لا ندركه إلا فينا بالتذكر وقت اليقظة، نحكيه لأنفسنا، ويمكن حكيه للآخرين، إنه من الملفظ، إنه قبلاً هذا الذى تسميه اللسانيات بالمففوظ السردى.

(١) عمل الحلم:

يقدم حلم نفسه كنص: هو جمل مسلسل تعرض سلسلة متوالية من السلوكات والإحساسات والأفكار الملموسة (إنها التمثيلات)، هو متتالية مصبوغة باللذة أو بالانزعاج أو بنسبة متغيرة منهما معا (إنه الانفعال). لنتفق جيداً على أن الأمر لا يتعلق برسالة أرسلها «أحدهم» يختفى فى أعماقنا، يأتى من خبايا الطفولة، فى اتجاه هذه «الذات» التى تجد نفسها مضطرة إلى استقبالتها، إلى فك سننها والتجاوب معها عند الاقتضاء بالكيفية المناسبة؛ ذلك لأن مثل هذه الرؤية التبسيطية تفسد كل شىء. إن الحلم لا يتكلم ولا يفكر: وفرويد يقول بشدة إنه «عمل» (فى كتابه «تفسير الأحلام» الفصل السادس). ويقارنه باللفز الرمزى قائلاً إن «أسلافنا وقعوا فى خطأ عندما أرادوا تفسيره باعتباره رسماً» (ص ٢٤٢) (٣)، فى حين أن هذه الرسوم الصغيرة تمثل، «تحضر هنا على أنها» حروف ومقاطع وكلمات مطلوبة للتعيين والجمع فى جملة.

ليس هناك من نبعث إليه بالبرقية، كما ليس هناك من يفك اللفز الرمزى - إلا إذا اهتم به المحلل. هناك الرغبة التى ليست لها علاقة كبيرة بالحاجة، وإلا كان ممكناً إشباعها وإسكاتاتها، والحال أن هذا يصرخ بلا نهاية فى مركز تمفصل جهازنا العضوى وجهازنا النفسى، صراخ الابتهاج وصراخ الضيق؟ هناك دوماً رغبة

مستعدة لانتهاز فرصة تسمح لها بشق الطريق حتى الأمكنة التي ستحظى فيها بإسماع صوتها، حتى الخشبة التي سيشغل فيها مسرحنا اليومى، المسرح الذى تتحرك فيه بلا انقطاع شخوص فى ديكور معين وهى تحاكي وتحكى قصصا، بمجرد مايكف الوعى اليقظ عن الاشتغال على موضوع أو هدف محدد. أما ذكريات اليقظة التي لاتزال طرية، فهى تستمر فى الوجود منظمة بشكل ملتبس حسب انشغالات النائم (الأساسية أو الثانوية، فلا أحد يقوم بالفرز) وتأتى دفعة من اللاشعور - الذى لا يمكنه أبدا فى معناه الدقيق التقدم كما هو إلى الشعور - لتحتل مكان المخرج فارضة على الخشبة مقاطع من سيناريو خاص بها. بيد أن العيب الأكبر لهذه المقارنة يكمن فى أن العرض المسرحى يفترض جمهورا، فى حين أنه لا يمكننا أن نجد أمام خشبة الحلم ولا حتى فى الكواليس لا متفرجين ولا عمال المسرح، وحتى مكن الملقن فهو فارغ، وإن بدا أنه يساعد على انفعالات البخارات والقرقرات. لو وجد متلق لهذه الحكيات، لما عرفت هذه الأخيرة طريقها إلى الوجود: لا نحصل بعد فوات الأوان إلا على إعادات الإنتاج، لا ممر «مباشر»، هناك «تسجيلات» انتقائية تحضر بعديا.

وبدقة، فرغبة الحلم تتكلم، حين تجد طريقها إلى التعبير، من أجل ألا تقول شيئا. وفعل الكلام (التلفظ) هو الذى يقوم مقامها بعد فوات الأوان حجة على وجودها، وعندما يحصل لها الكلام (الاشتغال) تكون بذلك قد أنهت مصيرها وأحرزت شكلا واحداً من الإشباع: إنها، إذا أردنا، قد عبرت عن نفسها وظهرت إلى الوجود مفرغة من عصارته، لاتنتظر أحدا كى يرد الجواب أو يرضيها. والأهم بالنسبة إلى اللاشعور يكمن فى الطريقة التى يلعب بها ممثلها، وفى قوة الإلقاء والتشوير الذى يفرضه، وفى البهلوانيات التى يرغمهم عليها، وفى طريقة التعجيل بنصهم الذى يحفظونه عن ظهر قلب. ولهذا، ينبغى أن نرى فيه قوة وشكلا، فهو، ليس دفاعا ولا التماسا ولا تصريحاً ولا زنبقا ولا مجموعة من الذكريات، «إنه لا يؤسس لا تعبيراً اجتماعيا ولا وسيلة لفهم أنفسنا». يقول فرويد نفسه («محاضرات جديدة فى التحليل النفسى»، ص ١٤): إن كلمة الحلم تسع نهائيا ثلاث ظواهر واضحة: طاقة راغبة (تكتسح الخشبة)، وسلسلة مفككة من المسرحيات، محكى هذه التمثيلية الإيمائية الذى أعيد تنظيمة، أنا الذى كنت (فيما يبدو) فى الوقت نفسه القاعة والخشبة والحافة والممثلين والمدير - الأوهام والعرائس والتكثيرات والظلال.

لنترك التحليل النفسى الاهتمام بـجُرد القوى الليبيدية، وللعياى إبراز علم الأعراض. فما يهمننا، نحن هنا والآن، هو عمل الحلم، وإذا صح القول، ما بين رغبته ومحكيها - رغبة لاتوصف ولا تصاغ أبداً، محكيها هو من يبتكرها فى النهاية (٤). لأنه إلى هذا الحد نتعرف على اشتغال نفسى لم ننته بعد من محاولة قياس التأثيرات. والنص (كما نفهمه اليوم) تكوّن من هذا العمل وبه. إنه نوع أصيل من العمل، كما المواد الأولية التى تظهر كلما حولتها الصناعة وجمعتها للحصول على نتائج نهائى (وهذا ما يسمى بآثر مما بعد فوات الأوان)؛ إنه نوع أصيل من النص، الذى يقدم للقراءة خطاباً، أو الأصح بعضاً من الخطاب بدون عنوان، بدون قصد سابق، بدون محتوى محدد.

ينبغى أن نزن كل واحدة من هذه العبارات: إن الفراغ الذى ترسمه، بما أنها سلبية، هو نفسه الذى ستجعل منه القراءة تمام الخطاب الأدبى، ولا يتعلق الأمر هنا بأى لعب بالكلمات. ليس هناك متلق محدد: إن رواية ستاندال، التى تريد الحديث عن سنوات ١٨٢٠م والتى تعترف بأنها لن تفهم إلا «بعد مائة سنة» لا تستهدف المعاصرين لها، ولا الفرنسيين، بل نحن بخاصة قراء اليوم أو أى إسكىمى تعلم الألقباء مؤخراً، فجمهورها هو الإنسان، أو كل من يعرف القراءة. وليس هناك رسالة إلى أحد بوجه خاص، فهل بالإمكان طلب أو تعليم أى شىء؟ هل تريد «فيدرا» راسين أن الغرام خطير، وهل هذا هو ما ينبغى أن نطلبه منها؟ لو لم يكن الأمر إلا ذلك، لكان عليها أن تتحمل نشر مقالات حول تربية الفتيات. وليس هناك مرسل: ألا يطمح راسين نفسه إلى هدف آخر غير كتابة أجمل مأساة عن محاكمة مشهورة؟ إن القصيدة لا تنحصر فيما يحسه الشاعر، ولا فيما «تريد قوله» الصور، ولا فى «الانطباع» الذى من الضرورى أن يختبره كل شخص خاضع لتقلبات القصة.

إن التماثل بين الحلم والنص الأدبى، لم يضعه فرويد بالطبع على هذا الشكل: لقد كان يتكلم لغة أخرى، وكان فى جزء كبير سجين تصور آخر عن الأثر الفنى (الذى يعنى، Sub Specie aeternitatis) فكرة ثابتة مقدمة فى ظواهر متناسقة). لكنه شق الطريق إلى إعادة كتابة الحلمى بعبارات النص، والعكس بالعكس. خصوصاً وأنه استخرج قواعد التحويل التى يخضع لها ما يسميه بالمحتويات اللاشعورية، لأن

فرويد قد ورث عن عصره رؤية وضعية وتشبيئية إلى مايفلى فى «قدر الساحرة»، بينما تحاول لغة الحداثة إعادة بناء كلام آخر ملح داخل الخطاب الخاضع لمنطق المساوى (٥) (يعنى داخل الخطاب المتداول). لنستحضر فى عجالة قواعد التحويل أو العمليات الأولية. إن عددها أربع:

(١) لا يصاغ إلا مايمكن أن يكون متصورا (مدركا وظاهرا للعيان بخاصة): يمكن للحلم، كما الفيلم الصامت، أن ينقل ويكرر أقوالا قيلت فعلا، إلا أن عليه أن يظهر مايحكيه.

(٢) يمكن لكل جسم - شخصا كان أو مكانا أو شيئا - أن يكشف عددا آخر من الأشياء فى طرفى شبكة التحويل (يحوى الحيوان الواحد أبا وأخا ومنافسا وشخصية نسائية، وفى مكان آخر، لأبد من ثلاث نساء لتجسيد صورة الأمومة).

(٣) وبصفة عامة، فالجوهرى منقول نحو موضع ثانوى، وجزئية تافهة قد تحمل الكلمة المفتاح.

(٤) تتقدم المتتالية التى تجمع العناصر اللاشعورية مصوغة ثانويا، يشكل غالبا مايكون ابتدائيا، من خلال سيناريو سردي أو مسرحي (يسميه فرويد «واجهة الحلم»). وبما أنه لا حقّ للمكبوت الخاضع للرقابة فى كلام واضح ومميز - لا حق له فى هذا اللسان الذى يتمفصل مع الواقع الذى هو واقع العمليات الثانوية كما وصفها أرسطو تحت اسم المبادئ العقلية - فعليه أن يصوغ نفسه عبر القنوات الأربع لهذا الإنبيق الذى هو الحلم.

وبهذا، نكون على صلة، بعد الانتهاء، بخطاب يبدو مشوها وذا فجوات، وهو بالفعل محول ومنبر بوجه آخر. وبصورة عامة ووجيزة فإن الجملة المستترة أضحت (أو الأصح أنها لا تتقدم إلا) محكيا ظاهرا يكون أحيانا جدّ مختلط، لكنه معروف دوما بإمكان تفسيره ماعدا تلك العلامة الصغيرة حيث ينكشف أصله و سرّته (فرويد). لأنه فى نظام النفسى، كل شىء يكون محددا بدقة، فلا مجال هناك للصدفة، ويكفى القيام بإعادة المعطى - لكن مع اعتبار الندبة التى تتعلق بالتخمين.

(٢) حيل اللغوية:

إن هذا النموذج من الاشتغال يوجد فى سيناريوهات حلم اليقظة (إنه الاستيهام بحصر المعنى)، كما فى «الاستيهامات اللاشعورية» التى تصلح «رَجِمًا» لكل التخيلات التى فيها تشبع الذات رغبتها على المستوى المتخيل بإعادة تقديمها إلى نفسها. وبعض هذه الآثار يجد طريقه إلى العمل الشعري للغة، ويمكننا أن نستحضر بهذه المناسبة عبارة بودلير الرائعة التى تتحدث عن «البلاغة العميقة». وبمعنى آخر، فالعمليات الأولية تشتغل بالطريقة نفسها التى تشتغل بها صور البلاغة التقليدية: الاستعارة المجاز المرسل، مجاز الكلية، إلخ. مالم يكن ضروريا القول بأن البلاغة الكلاسيكية إلى حد ما قد اكتشفت وهى تحلل أوجه الخطاب ميكانيكيات اللغة الحكمية؟ على أى حال، فالصيغ الأكثر استعمالا، يعنى الصور القائمة على الإبدال عن طريق المماثلة أو التجاور أو الانتماء، تحتل مكانا داخل المراكز الرئيسية لكل نظام (٦)، وهكذا ينبثق التكثيف. أما بالنسبة إلى النقل، فهو يخفى عددا لا بأس به من الخدع التى تلجأ إليها أوجه التعبير (التلميح، المبالغة، التورية، المفارقة، السخرية، التعويض، إلخ). وهكذا، فكوننا قادرين على التقريب بين البلاغة واللفظية المنحرفة للرغبة يبرر الميل الواضح داخل التحليل النفسى الفرنسى المعاصر نحو ترك النموذج التيرمودينامى عند فرويد فى الظل (سنقول بالكاركاتور: أساسه قُدورٌ تحت الضغط) من أجل معالجة لسانية للظواهر. إن اللاوعى مبين كاللغة، وهذا أحد الأكسيومات المشهورة المقترحة من طرف چاك لاكان - وثانيها يقول: إن «اللاوعى هو خطاب الآخر»، الأمر الذى يسمح بأن نرى أن الذات (أنا) تتكون مثل خطاب مستحيل (*).

إن اللاكانية تقدم نفسها كإعادة قراءة حديثة للأعمال الفرويدية بالذات. لكن الأبواب قد كانت مفتوحة (٧) فى وجه مثل هذا الاتجاه الجديد بفضل حثّ المعلّم القيينى على تجذير ممارسته بالاهتمام بالمادة اللفظية. وفى الواقع، لايمكننا الاكتفاء

(*) الاستحالة تغيير فى الكيف مع الحفاظ على الصورة النوعية - مراد وهبة: المعجم الفلسفى - ط٢ - دار الثقافة الجديدة - ١٩٧٩ - المترجم.

بكتاباتهِ عن الحلم، ولو أنها أكثر عدداً مما تتصور عادة (١٩٠١م): الحلم وتفسيره.. ١٩١١م.

استعمال تفسير الأحلام فى التحليل النفسى - ضمن: التقنية النفسانية - ١٩١٥م: المائتا ورقة التى تؤلف الجزء الثانى من: مدخل التحليل النفسى، ١٩١٧مكمل ميتاسيكولوجى لنظرية الحلم - ضمن - ماوراء علم النفس ويوجد كتابان أخران (٨) ودوما من بدايات فرويد، يركزان على آثار اللاشعور على الخطاب:

«سيكو باثولوجية الحياة المرضية» (١٩٠١م) ، و «النكته وعلاقتها باللاشعور».

إن الكتاب الأول مكرّس فى نصفه لتحليل الظواهر التى تهتم اللغة. نجد فيه تأسيسين جديدين ممتازين للأسباب التى جعلت فرويد نفسه عاجزاً عن أن يسترد فوراً اسم علم (Signorelli سيكوباثولوجية الحياة اليومية - ص ١١٠)، وجعلت أحد محاوريه عاجزاً أمام الكلمة الأجنبية التى كان يحاول ذكرها «aliquis المراجع نفسه، ص ١٣-١٦، كما نجد فصلاً يتناول نسيان الموصوفيات واتباع الكلمات: العديد من التحليلات المثيرة.

بماذا يتعلق الأمر؟ بوجه عام، يتعلق بدال فى معناه اللسانى: المادية الصوتية أو الخطية لدليل ما، الصوت أو الحرف - يُقبَلُ، فى شكله، المضبوط أو من خلال شكل تقريبي، مدلولاً - قيمة تقريرية أو إيحائية أو تعيينية - يكون، فى لحظة معينة غير ممكن قبوله من طرف الشعور ويوجد نفسه دفعة واحدة مكبوتاً، مع أن السياق أو ما تبقى من الجملة يدعوه إلى احتلال مكانه، هذه شابة نمساوية أرادت أن تستحضر هذه الرواية الإنجليزية التى أتت على إتمامها والتى لها علاقة بالمسيح: إنها ليست Quovadis إنها من لوقيس والاس Lewis Wallace... فيها يتم التعرف إلى Ben- Huur والحال أن صوت Hur قريب من العبارة الألمانية Hure (الباغية)، والنطق به، يمكن أن يبدو دعوة جنسية، الأمر الذى كان فى الوقت ذاته فاجراً ومشتتهى بعنف، وحالة الفلتات Lapsus ماتزال أكثر نمذجة، دون أن تكون جد مختلفة. بدلا من ثقب فى الملفوظ، فإن دُخِيلاً هو الذى يظهر وهو الذى يترجم - يخون أمنية، صراعاً، قلقاً غير قابل للوصف. هذه سيدة تشكر من كون النساء مرغمت على إنفاق ذخائر من المهارة والعناية لأجل نيل الإعجاب، بينما الرجال،

شريطة أن لا يكونوا مزورين، ماداموا، تقول للجمع المذحول، يملكون خمسة أعضاء مستقيمة...» (إذا كان الأمر مقصودا، فإننا سنحصل على فكاهة فاحشة!). إنها إذن فلتة لسانية Lapsus Linguae. هناك أيضا فلتة قلمية Lapsus calami. وهو يكتب الى محله، يعزو إنجليزى ضيقه إلى موجة البرد الملعونة، لكن بدلا من « هذه الموجة الملعونة من البرد Ware، يسجل قلمه فى مكر... «الزوجة Wife»: إن المذنب الحقيقى هو الزوجة الباردة. ومن المماثلات، أخطاء القراءة. هذا جندى يقرأ قصيدة وطنية: الآخرون سيسيروا «للموت من أجلى» فى المقدمة، وأنا سأبقى فى المؤخرة، هنا «لم لا؟»، بدلا من «لماذا أنا؟» Warum den- Warum deunnicht? nich?». فى كل مرة فإن الآخر فى خطابى الداخلى أو الصريح هو الذى يقول رغبته باستغلال الإمكانية التى يوفرها الدال للقيام بانزلاق (وهذا هو المعنى الأول للفتة). وكون هذه الأمثلة مأخوذة من سجل ما قبل الشعور - يعنى من هذا الذى يبقى مؤقتا خارج حقل الشعور، لكن يمكنه العودة إليه - فإن هذا لا يغير من الأمر شيئا - وكما نعرف جيدا، فالشعر لا يكف عن الاستناد إلى هذه الألعاب الصوتية لكى يقول أكثر مما يقول، وهكذا، ألا تتقارب الكلمات ذات القافية بتمائل جزئى للأصوات وبهذا الصدى الذى يولد مسأ أو لقاء بين المعانى.

يتخذ المؤلف الثانى ذو الحمولة العامة النكت موضوعا له. «إن كتابى عن النكتة Witz يشكل المحاولة الأولى لتطبيق المنهج التحليلى على أسئلة الجمال»، سيقول فرويد فيما بعد («خمسة دروس فى التحليل النفسى»، ص ١١٣). بطريقة مضطربة قليلا وتقريبية أحيانا، فكما بين تزفيتان تودوروف (٩) مؤخرا - لأنه لم تكن رهن إشارته لا المصطلحات ولا أنماط تصنيف البلاغيين المحدثين الذين يتغذون من اللسانيات البنيوية - يكس فرويد كمية مؤثرة من أمثلة النكت، بقصد صريح إلى التحقق مما إذا كانت الافتراضات المقترحة من طرف دراسة الأحلام مؤكدة حقيقة من طرف دراسة النكتة (النكتة وعلاقتها باللاشعور، ص ٢٥٥).

أمام هذه المجموعة من منتخبات القصص الطريفة، نحس بأن المؤلف يبتهج لتأليفها وإظهارها، حتى خارج أى اهتمام بالشرح: يقدم لنا منها منتخبا حقيقيا، وخاصة من القصص اليهودية التى تمسه بشكل قوى. فى الواقع، ومع ذلك، فمن

العينة الأولى المقدمة في أولى الصفحات، يبدو كل شيء واضحاً. إن الشاعر هين Heine يستحضر في سينت saynete (كوميديا) بورجوازيًا صغيراً يتباهى بوجوده يوماً جالساً إلى جنب البارون روتشيلد، هذا الذي «تعامل معه بطريقة جد-familli-onnaire، كما قال. إن هذه الكلمة نتاج تكييف، يلصق بجانبى مقطع لفظي مشترك، -mil- صفتي familier (عائلي) و millionaire (مليونير)، وهذا هو ما يسمى كلمة حقيقية، وهو نظام معروف قدر ما هو خصب. أين هو عمل اللاوعي في كل هذا؟ لقد تفضل فرويد بأن يشرح لنا كيف أن الشاعر هين لم يخلق بكيفية بريئة كلية نكتة من هذا النوع، ولو أنه عن وعي لا يريد إلا تحقيق أثر فكاهي في هذه الصفحة من «لوحات السفر». إن الأمر مع النكتة هو نفسه مع حلم تخييلي متخيل من طرف روائي أو كاتب مسرحي، تستحيل معالجته على غير ما يُعالج به حلم حقيقي منسوخ ثانية «كلمة كلمة» في مذكرة حميمة: عندما نعتقد بإمكان اختلاق حلم مناسب تخييلي، فإننا نخدع أنفسنا بما أن هذا الحلم، والتجربة تثبت ذلك، الذي أعيد بناؤه خصيصاً لشخصية ما هو أيضاً مثقل بالدلالات اللاشعورية كما في حلم حقيقي، أو كبقية المسرحية أو الرواية (سنعود إلى ذلك). وبعبارة أخرى، فنحن في هذا اللعب بالكلمات إزاء نمط من التكييف يتواجد أحياناً في الشخصيات المتداخلة أو الأشياء المركبة (من نمط خيّم) أقل مما في الحلم، لكنه يفترض تدخل العملية نفسها: يكون عنصران لفظيان بشكل محض مكثفين. إن الإيجاز الذي يُدرج في تكوين الكلمة الحقيقية ذو نتيجتين: فهو صدى للمشاكل المادية عند الشاعر هين (وهو يعرف جيداً ما معنى أن يعامل بكيفية عائلية من طرف مليونير)، ومن جهة أخرى فهو يبعث ابتسامة عند من يفهم الحمولة الهجائية لهذه الدعابة (١٠).

(٣) اللعب بالكلمات

لن نتوقف عند أسباب الاقتصاد الليبيدي التي تبرر حسب فرويد ظاهرة الإفراغ بواسطة الضحك، فضبط التوترات يبقى خارج غايتنا. لن ندخل أكثر في المتغيرات الدقيقة التي تسمح بأن نضع إلى جنب الكلمة المركبة التغييرات والتقريبات والمليّنات والتجسيّات وباقي أغاليظ الاستدلال: لقد أعاد تودوروف النظر بقدر كبير من الملاممة في تمييزات المحلل النفسي، وأعاد وضع معجمه المتجاوز في

مكانه. إلا أنه يتهم، دونما ترو، فرويد بالعنصرية والنخبوية (ت. تودوروف - المرجع نفسه، ص ٣١٤) لكونه سجل أن الألعاب بالكلمات خاصة قبل كل شيء بالبدائيين والأطفال والمرضى النفسانيين، وحتى السكّيرين. نقرأ فعلا مايلي:

«إن الطابع الجوهرى للنكتة، قد وجدناه، قياسا على تكون الحلم، فى اتفاق مهيا من طرف التكوين «الروحى» بين مقتضيات النقد العقلانى والانجذاب إلى عدم التخلّى عن لذة غابرة ترتبط باللامعنى وبالعيب بالكلمات».

(النكتة وعلاقتها باللاوعى، ص ٣١٤).

إن فرويد يصرح من جهة أخرى بأن الجمع بشكل «خلط ملط» بين العناصر المتنافرة، والمزاوجة بين الكلمات والأفكار دون إغارة اهتمام لعناها أسهل من استعمالها بشكل منطقي ومنظم ودقيق (ص ١٨٩).

وكما أن هذه العودة إلى المباحج البدائية توافق تصورا معينا عن النشاط «الرمزى». وكما أن فرويد من جهة أخرى يعتبر وفرة الرموز «ممكّن إسنادها إلى ارتداد قديم فى الجهاز النفسى». (محاضرات جديدة فى التحليل النفسى، ص ٢٩)، فإن تودوروف، الذى التبس عليه الأمر بخصوص كلمة ارتداد ويشحنها بمعنى تنقيصى^(١١)، ينتهى إلى نوع من قصر النظر الذى يقود المنظر إلى مركزية الذات وإلى العرقية.

فى الواقع، وهذا واحد من الدروس الكبرى لهذا البحث فى أشكال النكتة، إذا كانت هناك لذة فى الألعاب بالكلمات، فعلى التعبير أن يتمسك حرفيا بأن: اللعب بالكلمات يجلب اللذة. لأنه ونحن أطفال، كانت لنا الحرية فى اللعب بالكلمات التلذذ بذلك، إن أحد مظاهر العملية الأولية، وقد رأينا ذلك عند مرورنا من الحلم إلى النكتة، هو فى الخلط أو على الأصح فى عدم التمييز بين الكلمات والأشياء، بين الصور اللفظية والصور الموضوعانية، فالحقائق الفيزيقية غالبا ما يكون حضورها هلسيا، وعلى أى حال فتمثيلها المتصور ليس متخيلا بمعنى وهمى: بالنسبة إلى الطفل، الكرسي هو الباخرة، الغرفة هى المحيط، إلخ. أما الكائنات اللفظية، فهى ليست بالنسبة إليه قبل كل شيء معنى يظهر بسرعة من خلال صوت متفق عليه، بل أشياء مادية حقيقية، تدخل إلى الأذن، وتكتب بالمكعبات، وتخرج من الفم أو من الأيدي، وتخص الأنشطة الجسدية، وتدخل فى اللحم نفسه

(نحيل إلى التحليل Fort\ Da في مؤلفه، مقالات في التحليل النفسى، ص ١٥ - ١٩).

بواسطة أشياء فى رأسه وكلمات بين أصابعه، يبني الطفل لنفسه عوالم وإتانا الحظ - أولم يواتنا - لاعتبارها غير منسجمة وغير نافعة. فكل هذا لعب وكل هذا من المقدس. إن اللاشعور يتكلم هنا بقلب مفتوح وفم مقفل.

وكل هذا لايساوى شيئاً. بالعكس هذا مايجلب اللذة، هذه السعادة التى ترتكز إلى إعادة إنتاج تلهذات ما قبل التاريخ، سابقة على الوعى وعلى قياس الزمان. وهذا يحدث طبعاً، ولو بجهد أكبر، بحماسة الساذج (المولود حديثاً) الذى لايهمه الجزاء بما أن حياته المادية مؤمنة من طرف الآخر. لهذا ينبغى الرجوع إلى البعد الليبيدي، ومن ثم الجنسى بالمعنى الفرويدي، لكل هذه الألعاب.

ذاك ما نسيه تودوروف عندما لاحظ، بعد أن أثنى على فرويد باعتبار أنه ألف فى النكتة مؤلف الدلالة الأكثر أهمية فى زمانه. بأنه «وصف أشكال كل العملية الرمزية، لا العملية اللاشعورية فقط، قبل أن يضع فى المستوى نفسه التفسير التحليلي والهرمينوطيقا المسيحية (نفسه، ص ٣٢٠). تشويه خطير؛ لأنه عندما نعى بأن اللاشعور الفرويدي قد كان مكوناً من مختلف الترسيمات أو النماذج - الأولية التى تستقر قبلياً فى قلب الإنسان لكى تشع فى مختلف المعارف حسب فروع النشاط الإنسانى (الإدراك الحسى، القوة المحركة، الحس الداخلى، إلخ. نحيل إلى جليبير ديرون)، فإنه سيكون إعادة ابتكار تعالٍ، إنه دفن فى «الروح» لكل الأفكار التى تاتى أفلاطون من السماء، ويتراءى الظل الصوفى ليونج، نبى وميتافيزيقى ما يسمى بحق «علم نفس الأعماق». إن التحليل النفسى، الفرويدية، ولاينبغى أن نبذل رأينا، هو اللاوعى والجنسية - أو إذا أردنا: الرغبة - المتلازمان بما أنهما يولدان معا ويشكلان زوجاً - فى تاريخ الأفكار كما فى تاريخ كل كائن إنسانى. إن كل قراءة لفرويد تنمى أو تهمل إحدى هاتين الكلمتين أو ترابطهما ستكون احتيالية.

وهامو لأجل التأكيد مقطع طويل، سيقودنا ثانية إلى موضوعة جوهرية بالنسبة إلينا، وهى الموقف اللعبي:

«إن كل طفل يلعب سيتصرف كشاعر (سنقول اليوم: كاتب) مادام يخلق لنفسه عالماً أو، بالأحرى، ينقل أشياء العالم الذى يعيش فيه إلى نظام جديد يلأنمه تماماً. (...) إنه يحمل لعبه على محمل الجد، ويستخدم فيه كميات كبيرة من الانفعال. لهذا فعكس اللعب ليس هو الجد إنما الواقع (...) ولا شيء آخر يميز لعب الطفل عن «حلم اليقظة (الاستيهام) غير الدعائم (التي توفرها اللعب الممكن لمسها)».

(س. فرويد - محاولات فى التحليل النفسى التطبيقي، ص ٧٠).

إن هذا تأكيد لما قلناه، مادام الاستيهام المستحضر عبر حلم اليقظة النهارى لا أصل ولا دلالة حقيقيين إلا إذا كانا جنسين: إن الحلم، واللعب، والعمل التخيلى والاستيهام إنجاز مشوه لرغبة مكبوتة - وكل رغبة لا واعية «تسعى إلى أن تتحقق باسترجاع العلامات المرتبطة بالتجارب الأولى للإشباع، حسب قوانين العملية الأولية» (لا بلانش وبونتاليس - معجم التحليل النفسى، ص ١٢٠). وهذا ما يحيلنا إلى العلاقات ذات الطابع الإيروسى التى يحافظ عليها الطفل الرضيع (الذى لا يتكلم بعد) مع أمه عبر جسدها ذى الطابع الإيروسى. وإجمالاً، فاللعب هو إعادة اللعب بألعاب منسية وممنوعة، هو «التلذذ مجدداً» بتكرار وتحريف هذه التلذذات المفقودة... فاللعب بأعضاء الجسد... مثل اللعب باللعب ومع الرفاق وبالبنيات المعقدة أو الكلمات. ولأنه فى جزء منه لعب اشتهر الأدب، من جهة، بكونه لا يصلح لشيء، ومن جهة أخرى، يأتى بلذات لا توصف.

لكن الأدب لعبٌ مُحضَر: إن الجدية التى تُدير إبداعه تفرض الكثير من الجهد المتواصل، وصياغاته تكون جد معقدة. لأن الأمر يتعلق (عن لاوعى طبعا) بمسح آثار العملية الأولية بإغراقها وسط العمليات الثانوية التى تجد نفسها مُدمرة بشكل من الأشكال. إن الكاتب ينتج، وعلى العموم من خلال لغة مطابقة للاستعمالات النحوية، خطاباً شبه - عقلانى وقريباً من المحاكاة بالنظر إلى شروط الواقع، وإذا كان يمنح نفسه «إجازات» التعبير، وإذا كان له الحق فى رؤية «تخيلية» للأشياء، إلخ فإننا نعرف جيداً أن هذه هى مقتضيات «الفن» فبدون التزام كل الإنسان، وبدون ممارسته ذكاه، وثقافته، ولكن بدون «حبة الحمق»

التي تجعل من الفنان في نظر الجمهور نوعاً من الطفل الكبير أو المنحرف الذي لا يضر، لن يكون هناك إطلاقاً أي جمال ممكن. لكي تكون فعالة ومعتزفاً بها، على الكتابة أن تكون لا أكثر اصطلاحاً ولا أكثر لعباً: لا بد لها من قسط من الهامشية تتناسب مع تلك التي يكون أغلب القراء مستعدين لأن يمنحوها لطفولتهم الخاصة التي يرغبون في تذوق انزياحاتها ومباهاجها بمشاركة وجدانية، بعيداً عن كل قلق. إن كل واحد يتذكر زماناً كان يبني فيه واقعه برغباته، كان الفعل يصير فيه عالماً؛ زمان العصا السحرية والسجادة الطائرة، وباختصار، زمان السحر.

إنه السحر، وبعبارة أخرى «قوة الأفكار». إن الإنسان البالغ المتحضر، الذي التزم منذ مدة طويلة بمبدأ الواقع، والذي صارت حتى ألعابه خالية من التخيل والمجانية، لم يعد يعلم أن هناك مكانين لا تزال تتنفس فيهما حرية اللامعنى، فيهما يتقبل فكره النقدي أن يكون محايداً: الفكاكة والفن.

هوامش الفصل الثاني:

(١) إن المترجمين الأولين قد نقلوا في بداية الأمر "Die Traumdeutung" إلى «علم الحلم» (La science du rève) : لقد كانت عبارة «علم» غير مقبولة من المنظور الإبيستيمولوجي ولا تنقل بأمانة عبارة Deutung؛ إن العنوان الجديد سيكون: تفسير interpretation، لكن الجمع أحلام سيترك مكانه بفائدة للمفرد، الأكثر أمانة والمميز بشكل أفضل للجانب النظري لهذه الدراسة.

(٢) لنحدد بدقة لأجل هؤلاء الذين تفاجؤهم هذه العبارة، أنها الوحيدة الممكن قبولها: إن (محلل) analyse يمكن استخدامها في وقت لاحق، أما على طول «المعالجة»، فإن هذا الموجود على الأريكة هو الذى ينبغى أن يقدم الضرورى للعمل، هو الذى ندعوه ليقول كل شىء بما فى ذلك التفسير الذى يعطيه هو نفسه للمواد الخام التى توفرها حياته اليومية. أما الذى يصغى إليه وهو على كرسيه وخارج دائرة نظره فهو شاهد ليس فاحصا ولا استاذاً؛ إنه يستقبل قدر المستطاع ذلك التعلق الوجدانى الذى يؤثر على شخصه وعلى الشخصوس التى ينبغى أن يضعها على ظهره (إنه التحويل le transfert). ونحن مدينون لچاك لكان بكونه أول من استعمل هذه العبارة المحلل - وقت المعالجة analysant المنتشرة الاستعمال اليوم.

(٣) نحيل إلى تحليلات ج.ف ليوطار الدقيقة فى كتابه - الخطاب والصورة، ص ٢٣٩ - ٢٧٠ ، وما يليهما، وآخر الفصل الرابع.

(٤) نحيل إلى الإسهام الجازم لچاك دريدا فى كتابه - الكتابة والاختلاف، ص ٢٩٣ - ٣٤٠.

(٥) كل خطاب هو أولا من نظام المساوى بالتحديد بما أن اللغة (اللوجوس) بكل تنظيماتها الأقل أو الأكثر اعتباطية تتكون بطريقة تسمح بالتواصل وتحسنه: تبادل الأخبار، تجلى الفكر، وصف الواقع المدرك.

(٦) هناك اختلاف على أية حال: البلاغة تفترض على العموم اختيارا، بحيث بإمكاننا أن نعبر «مباشرة» أو «مجازاً»، أما اللاوعى فليست له لغة أخرى. ونحيل هنا بخصوص طرائق البلاغة إلى بيير فونستنى فى كتابه - أوجه الخطاب، فلانماريون - ١٩٦٨.

(٧) على الأقل ألم تكن منفرجة: يعود الفضل إلى چاك لكان فى فسحه المجال لابتعاد جادة.

(٨) اللذان يمكن أن نضيف إليهما المقالة الموجزة، المخصصة لدراسة اللسانى كارل أبيل التى تحمل نفس العنوان - المعانى المتعارضة كسمات بدائية - (١٩١١)، نستند هنا إلى أفكار

أوكثاف مانونى - مفاتيح للمتخيل - ص ٦٣ - ٧٤

(٩) نحيل بالضبط إلى الفصل الذى يحمل هذا العنوان «بلاغة فرويد» فى كتابه «نظريات الرمز»، دار سوى ١٩٧٧. ونستند أيضا إلى مقال جون ميشلى - صنو الاستعارة - مجلة الأدب الفرنسية، عدد ١٨ ماي، ١٩٧٥.

(١٠) إن فرويد يستحضر حالة الدعابات الفاحشة بطبيعة الحال، لكن ساندور فرينزى هو الذى قام بشكل خاص بتحليل تذوق الكلمات الفاحشة، فى قيمتها اللعبية المعوضة (مرحلة الكمون) والعرضية (نحيل هنا إلى الكلمات الفاحشة - فى التحليل النفسى ١ - دار بايوط، ١٩٦٨).

(١١) إن فعل - ارتد Regresser - يعنى العودة إلى عوامل سابقة من مراحل التنظيم النفسى، حيث بُنيت النفسية بشكل مغاير لكنه ليس «ناقصا»، إنها معقدة وغنية. هى أقل عقلنة ولكنها كثيرا ماتخضع لمبدأ اللذة (فرويد - مدخل إلى التحليل النفسى، الفصل ٢٢).

الفصل الثالث

أن يقرأ الإنسان نفسه بنفسه

«إن من يتقدم به العمر يكف عن اللعب ويستغنى ظاهراً عن اللذة التي يستمدّها من اللعب (الطّفلى). لكن ما من شيء أصعب على الإنسان من الاستغناء عن المتعة التي سبق أن خبرها. والحقيقة أننا لا نستطيع الاستغناء عن شيء، لأننا لا نعرف إلا استبدال شيء بأخر. وحيث يبدو أن هناك استغناء لا يكون هناك في الواقع إلا صوغ استبدال إلى (...) بدلاً من اللعب، صار من بعد يلذُّ له التخيل (الاستيهام). يشيد قصوراً بأسبانيا وينصرف إلى ما يسمى أحلام اليقظة (...) ومن هنا) فرضية حسبها سيكون الأثر الأدبي، مثله مثل الحلم النهاري، استمراراً وبديلاً للعب الطفولة في الماضي».

(س. فرويد - مقالات في التحليل النفسي التطبيقي - ص ٧١ - ٧٩).

إن عنوان هذا الفصل الجديد سيكشف عن الظهور غريباً عندما نطرح السؤالين الآتيين: ما الذي أقرأه عندما أقرأ؟ ماذا يقرأ الكاتب عندما يقرأ؟ الجواب واحد: أيا كان الأثر الأدبي، سواء أنتجناه أم استهلكناه، فإن القارئ، يقرأ فيه أولاً نفسه بنفسه.

١ - التمثيلات اللاواعية فى النص الأدبى:

هنا ينبغى لفت النظر إلى عبارة «أولاً»، لأنه من الواضح جداً أن المقصود هنا مظهر واحد للأشياء. لكنه مظهر ضرورى على أية حال بالنسبة إلى فرويد وإلى هذا الحد الذى وصلنا إليه رفقته. وفى الواقع، فالآن صارت لنا فكرة عن الطريقة التى تعالج بها، عن طريق الميكانيكيات التى تكون اللاوعى، التمثيلات اللاواعية (١) التى رايناها تنشأ التماثل والتعريف بنفسها، رغم الرقابة، من خلال الخطابات، أو الأصح كخطاب: للعرض، للحلم، للعب الطفلى، للعب بالكلمات كان مراداً أو لم يكن. فهذه الوقائع النفسية غير القابلة للإدراك تقدم بدائلها الاتفاقية فى دوار من التحولات، هو الذى يكون النشاط العميق للفكر الإنسانى، وهو الذى يتمكن فى جزء محدود من أن ينتظم وينظم نفسه فى فيض متقطع لكنه قابل بشكل متماسك لأن تتكفل به الذات وقابل لأن يكون مجزءاً ومعتزفاً به ثم مستبدلاً فى إطار النشاط الواعى الذى يسمح بالتواصل (العمليات الثانوية).

يمكن تصور مادة رخوة غامضة مصبوغة بشكل عنيف باللذة أو بالنفور، من خلالها تحاول أن تظهر نفسها وتسمع صوتها «كيانات» مادية (لها أيضاً معادلات عجيبة فى التيارات الإلكترونية للدماغ) تكون مدركة إما كأنواع من الصور بمعنى تمثيلات الأشياء، وإما كأدلة لسانية بمعنى تمثيلات الكلمات، لكن سواء تعلق الأمر بأشياء أو بكلمات، فالوعى الذى هو الكلام (أو الخطاب) لا يعرف القبض عليها إلا من خلال اللغة، ومن هنا فالاسم الذى يطلقه عليها اللاكانيون: «الدوال» (٢). باعتبار أن الأصوات يعنى الحروف (سيرج لوكير) التى تجسد الأدلة اللسانية هى، إن لم تكن مجردة من مدلولاتها المنطقية العادية، فهى على الأقل تتحول نحو نظام آخر من الدلالة: إن نظام «التدلال الفاضل/ الحال محل» هو ما يكون اللاوعى داخل اللغة. وينبغى التأكيد على أن هذا الأخير إذا كان «مبنياً» كاللغة فهذا لا يعنى أنه يملك لهجة خاصة، ذلك لأنه يملك القدرة على تغيير اللغة، أو بتعبير أدق هو نفسه هذه القدرة، ذلك لأنه يقوم على هذا التغيير نفسه باعتباره «خطاب الآخر» (٣). وبهذا، إذن، نجد أنفسنا أمام مادة لفظية مُخترقة بمهارة من طرف بلاغة نوعية، وهى المادة التى سمحت بالاثولوجية ومقاومات النوم المحولة أو مقامات «البراءة» الطفلية

بتحليلها قصد استبيان ذلك الانتشار والتوسيع الإمبريالي لنداءات الليبيدو، ولكن هنا يمكن التساؤل: ماذا عن المادة اللفظية الأدبية؟

من المعروف فى لغة التواصل النفعى الخالص - باعتبارها الحالة المثالية للغة، الهشة دوماً، والمعرضة كما سبق أن رأينا لغزو الفلتات والهفوات - أنها تخضع لهيمنة مسبقة من المنطق؛ أى أنها سيدة التبادلات المنظمة بين الناس، ومن ثم سيدة الدلالات الواضحة تمتلك كل كلمة مدلولاً (وهو واحد على العموم) والمخاطب يفكك الرسالة دون صعوبات كبيرة. أما لغة الطفل الذى يلعب، ولغة الإنسان الذى يحلم، ولغة «الأحمق» فهي لغات مبهمة لأن اللاوعى يسكنها ويحرفها باستمرار. أما اللغة الشعرية - وهذه عبارة مناسبة للإشارة إلى كل لغة غير نفعية؛ أى لغة الفن - فعليها أن تقدم لنا تركيباً من الاثنين ومنهما معاً (وهذا لا يكفى طبعاً لتخصيص العملية التى نعتبرها استيقية). ولهذا ينبغى الرجوع إلى تحديدها التقريبى قبل النظر فى كيفية إنتاجها واستقبالها (وهنا يتعلق الأمر بنمط استقبال خاص). ينبغى أن ننطلق مرة أخرى من مظهرات الغريزة؛ أى من المؤثرات والممثلات الإدراكية أو اللفظية. فالانفعالية تمرّ أولاً داخل اللغة فى شكل غير متمفصل، ويتعبّر أدق فى شكل لا - لسانى، أى فى شكل صراخات وانفعالات... إلخ، وبهذا فهي إما أن تستعاد من خلال معجم مطابق (هذا يعجبني، لا أحسّ أنى بخير)، وإما أن تقدّم نفسها بطريقة ملتوية بالنظر إلى قطب الخطاب، فإذا أخذنا وصفاً داخل محكى ما، سنجد أنه لا يعيد فى أى حال إنتاج ما هو واقعى، بل يصنع مقارنة لشيء من أشياء هذا العالم مانحاً من خلال الشريط انطبعا قد يكون عابراً، أو إحساساً بالإشباع، بالانزعاج، بل باللامبالاة (المحسوبة). ولهذا يشكل تدوين العنصر الانفعالى على هوامش الخطاب مشكلاً فى حد ذاته، أما التمثيلات فهي تتلاقى فى شكلين أساسيين أو مبدئيين: فمباشرة هناك الاستيهام، وجانبياً هناك التدلال. والاستيهام كما نجده فى حلم اليقظة إخراج حكاى فعلى لنواة استيهامية لا واعية، فهو يتقدم فى شكل سيناريو ينطلق من جملة بسيطة تتجسد فيها الذات فى علاقة دينامية مع مختلف الأشياء التى تتوجه إليها رغبتها. وعلى سبيل التمثيل، فمثل هذه «القصص» هى الخبز اليومي للأساطير والتراخيديا والرواية العجائبية. أما عبارة «التدلال»، ومهما بدت غريبة، فهي مناسبة لتعيين

مجموع مؤثرات المعنى التى لا تلاحظ بشكل مباشر داخل مظهر من النمط السردى: ينبغي أن نفكر، على الأقل كاحتياط، فيما يلاحظه النقد فى قصيدة كأصدقاء، كوسيلة نقل للموقف... إلخ.

إن هذا التقسيم يخفى مرة أخرى ذلك التقسيم التقليدى إلى «مضمون» و«شكل»، من جهة أولى عندما يكون مضمون استيهام ما مفهوماً بعيداً عن إخراج المشهدى (دون أن ننسى المراجعة الثانوية)، ومن جهة ثانية، عندما يستطيع استخدام الدوال اللسانية (بدءاً من الفونيمات إلى حدّ الأشكال الفارغة كالكلبيشييه مروراً باختيار تركيب معين ويتقطع إيقاع محدد) من أن يكون منفصلاً أمام نظر المحلل - القارئ عن ثقله الدلالى، من تدلّاه اللاواعى^(٤).

ما الذى يحدث عندما تجد نداءات الرغبة نفسها أو ممثلات الغريزة، أو اللاوعى، إلخ - خاضعة لإخراج فنى (كيفما كانت التحديدات الإيديولوجية أو المسمّى استيتيقاً) بدل الخضوع لإخراج عرضى أو لإخراج حلمى أو لإخراج لعبى (لاعب)؟ من البدهى أنه بالإمكان تشبيه الكتابة الأدبية هنا بشيء فنى، ولو أن عبارة «الجمال»، بكل تقلباتها، قد استُوردت من الفنون التشكيلية^(٥). وما يحدث، فى نظر فرويد، يستند إلى بعض الصيغ - المفاتيح، ونقدم هنا صيغتين تبدوان تحديديتين:

- «من اللافت للنظر أن بإمكان لا وعى إنسان التفاعل مع لا وعى إنسان آخر عن طريق تحويل الوعى».

(س. فرويد - ما وراء النفس، ص ١٠٧)

- «يبدو ألا جدل فى أن لفكرة «الجميل» جذوراً فى التهييج الجنسي، وأنه أصلاً لا يشير إلى شيء آخر غير ما يهييج جنسياً».

(ثلاث مقالات فى النظرية الجنسية، ص ١٧٣).

سنعود إلى الصيغة الأولى، فيما بعد، لكن من المهم طرحها من الآن. أما الثانية فهى ذات حمولة عامة وتتقدم كمسلّمة فرويدية، لهذا لن نقول عنها إلا كلمة واحدة.

إن جمال الجسد مرتبط بما يهييج جنسياً: وهذا لا يعنى: «يهيج ما هو جميل» بل

يعنى «الجميل هو ما يهيج» - وهذا ما أغرى أغلب الكائنات الإنسانية فى الأزمنة المنسية، بحيث تعترف فيه بالواقع وتنقله، يعنى مؤثراته، من جهة بحسب ثقافتها (المرتبطة مثلاً بالظروف المناخية والعرقية والغذائية)، ومن جهة أخرى بحكم التكييفات الفردية الأولية (وهنا نستحضر ديكارت الطيب مع الانتباه إلى كونه يميل إلى النساء «الحولاء» لأن مرضعته كانت تشكر من الحَوْل) (٦). وهذا الإغراء يرفع العوائق وينتج تهيجاً محيطياً ويسمح بالبحث عن تُلذذ تناسلى، لكن هناك «تابو» يبقى مرتبطاً بالأعضاء التناسلية نفسها التى تعاقب ببشاعة عند المتحضرين، وبالصمت عند الشعوب التى يكون فيها عرض هذه الأعضاء أمراً عادياً. وربما أن الأمر يتعلق بمنوع يعود إلى الإفراط فى القلق أو إلى المبالغة فى التقدير: والنتيجة واحدة، فاللامرئى يقلق، والمرئى معرض للتهديد قدر ما هو معرض للثمين. وما يلاحظ على الخصوص أن القدرة على الإغراء تنتمى، عن طريق النقل، إلى الطباع الجنسية المحيطة:

- «إن الأعضاء التناسلية نفسها (...) لا تعتبر غالب الأحيان جميلة، وبالمقابل، يبدو أن طابع الجمال يرتبط ببعض العلامات الجنسية الثانوية.» (س. فرويد - قلق فى الحضارة - ص ٢٩).

٢ - مكافأة اللذة والإعلاء:

هكذا نصل إلى الفرضية الفرويدية المشهورة بمكافأة اللذة، وهى فرضية نجدها مصاغة فى نهاية نص «الشاعر والخيال»:

- «يخفى الحالم اليقظ استيهامته بعناية عن الآخرين، لأن لديه انطباعاً بأن هناك ما يستدعى الخجل. ولو أطلعنا عليها، فإن هذا الإطلاع لا يجلب لنا أية لذة. ولهذا تبدو لنا مثل هذه الاستيهامات، عندما نواجهها، منفرة أو هى بكل بساطة ما يصيبنا بالفتور. لكن عندما يكون الشاعر (...) هو من يحكى لنا ما نجح إلى اعتباره أحلامه النهارية الشخصية، فإننا حينئذ نختبر لذة جد كبيرة معزوة بلاشك إلى تضافر الكثير من مصادر المتعة. كيف يتمكن من بلوغ هذه النتيجة؟

(...) إنه يلطف مما للحلم النهارى من تركز على الذات وذلك بتحويله وإضماره،

وهو يغرينا بحق الاستفادة من لذة محض شكلية (...) يشجعنا من خلالها بالكيفية التي بها يقدم استيهاماته. نسمى كفاءة الإغراء أو اللذة التمهيدية مثل هذا الحق في الاستفادة من لذة تقدم إلينا من أجل تحرير متعة عليا تصدر عن طبقات نفسية أكثر من ذلك عميقة (...).

فالمتعة الحقيقية أمام الأثر الأدبي تصدر عن نفسيتنا التي تجد معه خلاصها من بعض التوترات. وربما أكثر من هذا، ألا يكون الشاعر عندما يسمح لنا بالتلذذ باستيهاماته دون خجل أو وسواس، هو من يساهم بقدر كبير في بلوغ هذه النتيجة؟»

(س. فرويد - مقالات في التحليل النفسي التطبيقي، ص ٨٠ - ٨١).

وأخيراً، فإن كل شيء يحدث كأن الحظ في أن نستشعر لدى الآخر اعترافاً لطيفاً باستيهام معروف به «شدوذه» يسمح لنا بأن نتلذذ به لحسابنا الخاص بضمير مرتاح: وسواء كان تقديمه هنا جيداً، أو كان بشكل أكثر فظاظاً هناك، فإن ذلك لا يهم شريطة أن تكون الاستفادة حقيقية؟ وبعد، ألا ينبغي قبول هذا الدفق المتحرر من كل خجل. لهذا ينبغي أن تكون «الفائدة» طروباً: جاذبية حقيقية. وإذا أزيلت المقاومات، كما كانت من قبل ومن أجل الانصراف إلى المتعة الإيروسية، فلا شك في زوال كل كرب أو فتور. وهذا هو دور الشكل، كما يفترض فيه «شكل جميل» - والأمر لا يتعلق فقط بالتناغم الملائم والفعالية السرية، إنه تواطؤ لذيق ذلك الذي يقوم بين العين واللوحة: فهذه الأجساد وهذه الفواكه وهذه المناظر تكشف رشاقتها المرجبة عن أشكال مستديرة وعن لعبة مشتركة بين الظل والنور وعن أوجه مضببة وعن نقطة صفراء بديعة... أما بخصوص النص، فهي الإيقاعات، ومن ثم التنفس، واستردادات الأصوات وتوافقات الأصوات والاستعمال اللامألوف للفظة أو لسياق جملة، وسحر «صورة» مفاجئة، وفجأة صفة تغير السياق، وديكور أو شخصية «صائبان» مستحضران على أساس من اللاواقع، واستدعاء كلمة أو رمز من خلاله تنزلق فكرة معمارية متفق عليها وهي التي تتكلم، أو أحياناً هوس، عادة أسلوبية نحسها كرفة جفن... فالجوهرى أن يمر التيار، يعنى: الانفعال. وما قبل الشعور (ومنه يستمد نقد ممارس تحليلات لقلقه) هو الذى يأخذ على عاتقه عدداً وافراً من الشظايا التي لا تظهر للعيان والتي منها يجنى ابتهاجا. وهكذا الأمر، في موضع آخر بالنسبة إلى اللاشعور.

ولهذا، فإن إغراء الشكل تمهيدى بالنسبة إلى فرويد الذى يرفض دراسته كما هو منكراً أن يكون ذلك من شأنه. ولأنه كذلك، فمن المفترض أن ينفتح على نوع آخر من اللذة وأن يوجد مصدر آخر للإشباع، فى الخلف أو فى الأسفل أو فى الوسط تماماً، لكنه يقدم بطريقه يبقى بها غير مرئى (كالظرف المخبوء بمهارة عن العين فى الرسالة المسروقة لكاتبها يو). وحسب التعبير الاقتصادى فهذه اللذة، وهى بعيدة عن أن تكون ثانوية، ترتبط بتفريغ الليبدو الجنسى الذى لا يحس تحديداً كما هو، لا بصفته ارتياحاً من توتر شديد، ولا بصفته مرتبطاً بدائرة الانفعالات الأصلية.

يمكن أن نفترض أن هذه النفحة من المتعة تتمظهر على مختلف المستويات. أولاً، من خلال أبسط ابتهاج مستعاد بالقدرة على الاستيham بكل حرية ما دام قد حصل التغلب على عقبة ما، وسيكون ذلك هو اللذة اللاعبة نفسها، اكتشافات مع استقلالية الطفولة أو الخضوع لمملكة العمليات الأولية، على اعتبار أن مبدأ اللا اتصال هو ما يوجه هذه المملكات: وإجمالاً، فهى مملكات الفوضى. فهنا نجد تلك القدرة المستعادة على اللعب باللا معنى، ذلك الرفع المؤقت لواجب الاعتماد على العمليات الثانوية التى تدير مبدأ الواقع. إن إيقاف الطاقة وعزل الانفعالات والربط منطقياً بين التمثيلات والتحايل على حواجز المستحيل والتقدير تبعاً للزمن والإبقاء على أسوار الكبت واقفة أمور لها وزنها، بحيث إن النفاذ إلى منطقة اللعب الحر يتمحّص عن ادّخار (من خلاله نستعيد النكتة). ونضيف إلى ذلك أن الاستثمارات الانفعالية تكون أقل كارثية ممّا فى العرض، وأقل شدة ممّا فى اللعب الطفلى، وبشكل مفارق، فما يدعمها أنها تشتغل على أحسن وجه أو لأفضل مدة، لكونها محكمة يضبطها إشباع نرجسى معترف به من طرف الأنا الأعلى (٧) - المحفل المكلف بتمثيل اقتضاءات الواقع كما الممنوعات العائلية داخل اللاوعى («لن تستمتع بدلاً من والدك من نفس جنسك» إلخ) ، وهنا نجد مرة أخرى نظرية الفكاهة كادخار لمصروف انفعالى (س) - فرويد - النكتة وعلاقتها باللاوعى، ملحق الكتاب).

وهنا، ينبغى أن ننظر فى ميكانيكية أخرى هى ميكانيكية الإعلاء، نحن نعرف أنها تتركز فى الواقع إلى أن نشاطاً غريزياً «يُحوّل» عن مجراه نحو غاية جديدة لا جنسية» ونحو أشياء مثمنة اجتماعياً (ج. لا بلانش و. ج. ب. بونتاليس: معجم التحليل النفسى، ص ٤٦٥).

خذوا أمثلة من ذوات عديدة تمتلك غريزة سادية قوية: ففي إطار الذهان ينفذ چاك السفاح هذيانه عبر «انتقالاته المشؤومة إلى الفعل» الذى نعرفه جميعا، وهذا طبيب جراح يكتسب وسيلة ممتازة للإعلاء فى إنقاذ حيوات إنسانية، وهذا مركز دوساد يقوم بإخراج مشهدين بواسطة الكتابة لصور تنظيمه الاستيهامى المهدبة، كمن يقرأ «مائة وعشرون يوما» فهو الآخر يتحرر من بعض التوترات بالاستيهام انطلاقا من نص ساد. ويمكن القول إن ساد قد وجد فى قلعة الباستيل الفرصة ليشفى غليله بواسطة المخيلة أثناء الكتابة: أن تكون كاتباً وأن تتمسك بوصف الروح الإنسانية، وليكن ذلك فى شذوذها، فهذا هو الوضع الذى يقبله المجتمع بل ويحتاج إليه أحيانا - وماذا عنى أنا القارئ؟ أعرض لنفسى وجهاً لوجه فيلم الرعب المفضل، وهنا يوجد ما أحقق به رغبتى، وما يمنعنى من توجيه ساديتى المستترة نحو محيطى: لكن يمكن أن أكون أستاذاً مختصاً فى رواية القرن ١٨م، أو طبيباً نفسانياً أو عالماً فى الإجرام، فأجدنى «مجبوراً» مهنياً على قراءة ساد، ومشغولاً بهذه القراءة دون أى تحفيز حقيقى... وإذا كان الإعلاء الفنى مضموناً مبدئياً فى حالة الفنان سيد إبداعه، فإن فعاليته صعب ترسيخها فى حالة الهوى (٨).

٣. عن التقمص:

إن بلوغ المرام بواسطة القراءة يتحقق، فى جميع الأحوال، بين أناى وأناى، داخل ما يسمى وضعا نرجسياً. فموضوعى (موضوع حبنى مثلاً) موجود فى داخلى لكن لا كجسم غريب بل كجزء من أناى (٩). هذا ما يمكن أن يكون من تأثير التقمص. هى ميكانيكية بسيطة، وللجميع فكرة عنها، والأدب نفسه، منذ دون كيشوت إلى حدّ چان بول سارتر (فى روايته «الكلمات») مروراً بمدام بوفارى، يعج بأمثلة عن هؤلاء القراء الذين يتصرفون على أنهم «أبطالها الحقيقيون» ويجعلون التشبه بهم مثلهم الأعلى: وفى إطار تحليلنا، فنحن نصادف حالات أكثر تميزاً. ودراسة فرويد «الشاعر والخيال» تقف عند هذا الأمر مميزة بين الحكايات الشعبية التى يكون بطلها جد منمذج، وبين الروايات المسماة «سيكولوجية» حيث توزع مختلف مظاهر النفس على عدد من الشخصوس - الركائز، بل والروايات «الغرائبية» التى لا يكون فيها البطل إلا سارداً لما يلاحظه فى الحياة التى تحيط به. وينبغى القول إن أشكال

ودرجات التقمص غير محدودة: ينبغي التذكير بأن الجوهرى هو أن الأفعال الممثلة عبارة عن استيهامات متكررة، ويمكن القول إنها تقريبا مخففة بواسطة نقل ما هو طريف. وهكذا يصير المشكل: كيف ولماذا يدرك القارئ أن الأمر يتعلق فى كل هذا بمسكوت عنه هو وحده الذى يملك الحقيقة يريد إبلاغها إليه (لكن من هو هذا الضمير الغائب؟ وبأى جزء منه نفسه يتعلق الأمر؟). إن تقمص الفارس الشجاع أو المخبر الذكى أمر يتعلق بعملية مثلثة الذات نفسها: نتباهى، سرىا وعن طريق شخص مسخر، بكل الكمال. لكن هل هذا هو المهم؟ أليس المهم بالأحرى هو ما يمر أمام عيون القارئ؟ هنا أيضا تكون حالة أوديب نموذجية (١٠). وقد سجل فرويد الأثر الذى تحدثه عندما قال:

«إن الرعدة لتسرى فينا عندما ننظر إلى هذا الذى يحقق أمنية طفولتنا، وهى رعدة تدخر طاقة من الكبت الذى ألجم منذ إذ ذاك هاته الرغبات. فالشاعر إذ يُخرج إلى الضوء جرم أوديب، فهو لا يترك لا محيضا عن أن نعرض دخيلتنا، دخيلتنا التى لا تفتأ هاته الدفعات ماثلة فيها وإن قُمعت».

(س. فرويد: تفسير الأحلام، ص ٢٢٩).

فمن خلال السيناريوهات المنجزة نسترد، دون أن نعلم ذلك، انفعالاتنا العتيقة: نسترد تلك الطفولة التى تعبها رغبات رهيبية، فهذه هى حقيقة ماضينا التى نستشعرها، ومن هنا الذعر، نسترد ذلك عهداً قريبا من الجنّة، قريبا مما نسميه عادة «بلد الحلم»، ومن هنا التلذذ. والنتيجة أن يسحرنا هذا الذى نعرف أننا كنا (والذى لم نكنه أبداً بشكل مضبوط، ولكننا حلمنا بأن نكونه) والذى نكرر فى كل لحظة ذكره المفقودة. فعند عرض «الملك أوديب» نستمتع باللعب مرة أخرى، وبشكل علنى إلى حدّ ما، بتلك الأدوار التى لم يسبق أن لعبناها حقيقة فى الماضى والتى لا نكف عن إعادة إنتاجها فى أحلامنا واستيهاماتنا بعيداً عن الآخرين، ومن خلال إعادة إنتاج تتغنى بغيابها وبانعدامها - فهل لعبناها بالفعل، لقد كان هذا فخ الجنون الذى يستند إلى رغبة ميتة (لأنها تحققت فى الواقع)!

لن يكون من قبيل الصدف أن تتناول الدراسات الحديثة فنون العرض وهى التى عمقت بشكل أفضل مقارنة الرغائب الأولى. ففى هذه الفنون ينظر إلى الأشياء على

أنها مضخمة بواسطة مَسْرَحَة الإخراج المشهدي وتفخيمه: إن المشهد اجتماع مقدس بين الصوت والأضواء. وفيها تكون الأشياء قابلة للمس: بفضل فعل مجسّد، ومرعى من أجل عيوننا التي تعتبر أيادي أرواحنا، هنا تشكل تمثيلات الأشياء وتمثيلات الكلمات شيئا واحدا. فالمهم هو التمثيل أولا.

وفى هذا الشأن لا مفر من الاطلاع على دراسة كرستيان متز المضيفة «الفيلم التخيلي ومُشاهدته» ضمن كتابه «الدال المتخيّل» UGE, 1977 «١٠ - ١٨» ودون أن نتحدث كثيرا عنها مادامت تهّم فى المقام الأول هواة الفن السابع وفوائده الخاصة، فإنها تترجم، حيال مشاكل الاستقبال الذى ترتبه النفسية للتخييل القادم من الخارج، همّا من هموم النظر إلى الأشياء بمنظار جديد يمكنه أن يعمل على تطوير فكرتنا التقليدية عن «الانفعال الجمالى».

أما بالنسبة إلى الاعيب ورهانات التراجيديا، فمن الضروري الاستناد إلى أبحاث أندري غرين التى جمعت فى كتابه «عين زائدة». فى افتتاحيته، يحيى هذا الباحث التماثل بين المسرح الذى ينفصل عن المشاهدين بواسطة صف أنوار أو بأى حاجز مادي آخر، وبين ذلك «المسرح الآخر» حيث يشتغل مصير الغرائز، مركزا بإلحاح على أهمية الكواليس التى تحجب العمل اللاشعورى، كما تخفى جهاز التشغيل المسرحى، وهو يلجّ على أن كلام الممثلين هو الذى يغلّف بحضوره الفيزيقي المتحرّك والانفعالى الجانب المنطقى - النحوى فى النصّ الذى يلفظونه، بشكل يُوهِم بالحياة اليومية. ولهذا يعين كمشروع إلى قراءة نفسانية «البحث عن المحركات الانفعالية التى تجعل من العرض المسرحى رَجِمًا وجدانيا من خلاله يلقي المشاهد نفسه مشاركا ويشعر بنفسه لا فقط مطلوبا، بل ومستضافا كأنما كان ذلك موجّها إليه» (ص ٢٩).

إن أندري غرين يركّز فى كتابه على أن روعة وسحر (المشهد) المسرحى يؤدىان إلى «توقيف مفعول الكبت» وقلب اتجاه العبور إلى الشعور بالنسبة إلى هذا المتجرّم المعاقب بالمنوع الذى يكوّن العرض. خاصة وأنه يضع الفضاء الجمالى بما هو حل مؤقت للمشاكل التى يثيرها وضع الإنسان، بين حلّ العصاب الفردى والمُحاصر، وبين حل الدين الجمعى، الجماعى والإعلائى:

- «بين الاثنين (...) يشغل الفن موقعا انتقاليا يُنعت بميدان الوهم، هو الذى يوفر متعة مكبوتة منقولة بواسطة أشياء تكون ولا تكون ما تمثله» (ص ٣٥).

وإن كان هذا لا يهيم بشكل خاص إلا التمثيل الحى للفن المسرحى، فإنه ينبغي نقله، بواسطة بعض الترتيبات، إلى كل الأشكال التى لها علاقة بالفن الأدبى، أى إلى كل الأجناس.

و المحلل نفسه يعين الطريق إلى حل المشكل الدقيق والقليلة دراسته نسبيا. فالموضوعات الاستيهامية ذات الميل الجمالى يكون إعدادها داخل نظام ماقبل الشعور. الشعور من أجل إظهارها، لاحتبسها داخل العزلة الخاصة بحلم اليقظة، وهذا لا يعنى أنها تتخلص من المظهر النرجسى الخاص بهذا النوع من التشكلات: فالذات لا تتخلى عنها إلا من أجل استعادتها وهى مقومة (مقبولة) من طرف الآخر (الجمهور) الذى يستولى عليها ويديرها داخل نرجسيته كقارئ. فالأمثلة تكون منتدبة، وهى تصبح فعالة ومكافئة عندما يعكسها الآخر (وهنا نسترد، بلا شك، المثل الأعلى للأنثى). فالإنتاج الفنى يشتغل، حسب المؤلف باعتباره «نرجسيا مضاعفا» (١١) لمن عمل على تدويله. فالمتعة التى تفقدها الذات عند تحويل رغبتها فى الموضوع، عن طريق مبادلة الغاية الجنسية بغاية سامية تستردها جزئيا «عند استقبال البناء النرجسى للآخر. وبهذه الطريقة، تستحق موضوعات الإبداع الفنى أن تُسمى عبر - نرجسية، بمعنى أنها تخلق تواصلا بين نرجسيات منتج ومستهلك الأثر» (ص ٣٦). ويبقى تحديد ما يحدث لهذا المستهلك: وهو مُنعم عليه بأن يشعر بنفسه مستقبلا ومؤتمنا على هذه المتعة، دون أن يكون مع ذلك فى مصدر هذا الشيء الجميل الوهمى، فلذلك يمكن أن نفترض أنه يستثمر المزيد من الطاقة الليبيدية الاحتياطية فى استعادتها على طريقته وفى الإجابة عنها بلفته الخاصة، وفى التمديد الشخص الذى يمنحه للاستيهام المقدم، وبعبارة أخرى، فهو يزخر فى الشبكة أو أنه، خائبا، يصرف النظر عن ذلك وفى أحسن الأحوال، وهو راض عن الاعتراف به كمستقبل أو كمنتج، فإن هذا أو ذاك، سينتفع من الانفعال ومن الصياغة الاستيهامية، وسيكون بإمكان كل واحد أن يتلذذ بذاته وأن يدخل فى علاقة مع الآخرين فى الوقت نفسه.

وإجمالاً، فالواحد يعتقد أنه وحيد عندما يقرأ، لكنه دون وعى يقرأ مع الكاتب فى وفاق واستحسان وتجاوب(١٢).

٤. ألم الكتابة:

سنفهم لماذا لا يستطيع المنظور التحليلى النفسى أن يقيم، عندما يتعلق الأمر بمادة الفن، تمييزاً صارماً بين الانفعال الذى يحسه المستهلكون «بشكل سلبى» وذلك الانفعال «الفعال» الوحيد لدى المنتجين: هناك دوماً عمل النظام الأولى واستثمار الوجدان، وقد انطلقنا من المظهر الأول لأنه يبدو أكثر يسراً من بين الاثنين، فالأدب التحليلى المكرس لـ «الإبداع» هو الأكثر غزارة. لكنه ليس دوماً الأكثر حسماً (ربما لأنه بالضبط لا يركز بما فيه الكفاية على التبادل المركزى). وإجمالاً، فإن هذا هو ما يحدث: يجد المحللون صعوبة كبرى فى أن يُسقطوا على المبدع معلومات وتحاليل تهم بكيفية نوعية منتج الأشياء الفنية، وملاحظاتهم تنطبق على كل نوع من النشاط فيه يسمح الإنسان باستثمار ذاته دون ادخار(١٣). والفنان يملك هذا الامتياز خصوصاً فى عصرنا المصنع حيث يتم الإنتاج فى حلقات، قصد الحفاظ على الدخل التجارى بدل منح سلطة الاكتمال الذاتى لإنجاز الأشياء، والفنان تتجلى أصالته فى كونه حرفياً حقيقياً، يعمل من تلقاء نفسه، من تخيله بإيقاعه، ولو كان محاصراً بقيود المؤسسات والأذواق والأنماط. وفى نهاية هذا العمل الحر، هناك فى كل مرة قطعة وحيدة تُدرج هى نفسها ضمن سلسلة لها هويتها الخاصة، لها أسلوب.

فى إطار التواصل العبر - نرجسى يفرض التبادل بين الذات شكلاً خاصاً من العطاء المقدم والمستقبل ومثلما يكون الهواة فى ميدان الفن متأثرين بأهمية العمل (كمية الزمان ونوعية الانفعال) الذى تظهر حركيته بعد إنجاز مؤلف ما، فكَذلك ينبغى أن تختبر الأنا النرجسية بطريقة ما درجة استثنائية من الاعتمال (١٤). وللاوعى أيضاً نسبة معينة من «المهارة» توجه نجاحات «العبقري». إن تَفَهُُّم وإنصات الذات المستقبلية يتطلبان النجاح فى تنوير النظام الثانوى (المسمى بالذمة التمهيدية) وكثافة فى الانفعالات المستثمرة وتيسراً تستمدّه المحتويات الاستيهامية من تشييدها. وينبغى أن يكون هذا الأخير مضبوطاً، لا ناقصاً لأن هذا سيخلق

صدمة (لا تواجه الرغبة الجنسية إلا فى القلق) ، ولامبالغاً فيه لأنه بذلك سيستقر الإنكار (لن يكون هناك على الإطلاق أى مركز للاحتكاك، ولاوعى القارىء، لن يقوم بأى وصل). فالمطلوب هو الانفعال الذى يمارس لعبته الحرة بين الاكتساح المربع والجفاف، وأخيراً هو بالضبط مكافأة اللذة: كثير من الإشراق الأعمى، فالقليل جداً لا يثير الانتباه.

كيف يبلغ الشاعر هذه النتيجة؟ هذا هو سره الخاص. إنه فى هذه التقنية التى تسمح بالتغلب على هذه القوة المنفّرة، والتى لها حقاً علاقة بالحدود القائمة بين الأنا والأنوات الأخرى يكمن «فن الشعر L'ars poetica» .

(س . فرويد: مقالات فى التحليل النفسى التطبيقي - ص ٨٠).

وعند الحديث عن الصعوبة التى يخبرها الفنان عند بحثه عن النوبة الحساسة - «إنه الفن بعينه»، كما تقول الحكمة الشعبية - ينبغى أن نعى بأننا لا نحرك إلقاء قيد أنملة هذا اللغز ذا الشكل الجميل الذى وقف فرويد أمامه عاجزاً (١٥) ونحن نملك ، ربما، ترسيمات المونتاج، ولكننا لانملك أية وسيلة لقياس الشدات: هناك حالات كثيرة من هذا النوع، والباراميترات المستخدمة عديدة بالنسبة إلى التحليل النفسى كما بالنسبة لأى نمط من التحليل فى الوقت الراهن. ومع ذلك فهنا ينبغى أن نتقدم. لكن ماذا ترائنا نجد فى الأدب التحليلى الذى يهتم عمل الفنان؟ تنسب تحليلات الإبداع إلى ميكانيكية الدفاع أو إلى تشكل تسوية، إلى رضى نرجسى بالذات، أو إلى منفذ خارج النرجسية، إلى نشاط وثنى أو إلى إعلاء ناجح، إلى توسع الاستقلال الذاتى المنتج (أو يعيد الإنتاج) ضد الأب أو تحت إمرته، إلى لجوء إلى حضن الأم أو إلى الانتقام منها^(١٦).. إلخ. وكل هذه الإمكانيات قابلة للإدراك وقد تم إدراكها.

وبخصوص تجربة المحللين النفسيين أمام الحالات الخاصة وبخصوص اقتراحاتهم النظرية، سنجد إيضاحات وإطاراً بيبلوغرافياً فى الفصل الثانى من الجزء الثانى من كتاب أن كلانمى: «التحليل النفسى والنقد الأدبى» (٥٣ - ٦٥).

لكن إضافة إلى الأعمال المذكورة حيث تبرز أعمال بيير لوكى وميشال دوموزان،

سيكون من المناسب أن نضيف بهذا الصدد أبحاث ميلانى كلاين (١٧). فهى تقترح النظر إلى الدفع الإبداعى على أنه محاولة إصلاح للموضوع (موضوع الحب) الذى يتم الاعتداء عليه خلال مراحل التكوين النفسى القديمة، وهى محاولة كانت قد اقترحتها الانا الأعلى الباحثة عن التحرر من عقدة الذنب (فى هذا الشأن وبخصوص الفرضية التكميلية لمقابلة إصلاح الذات نفسها المقترحة من طرف جانين شاسكى - سمير جل، نحيل إلى كتاب، «من أجل تحليل نفسى للفن والإبداعية» المنشور سنة ١٩٧٧م، ص ٨٩ - ١٠٥).

٥. الورقة والأريكة:

ليس للمسلك الذى تقدمه دراسة التعليقات إلا القليل من الحظ فى بلوغ نتائج واضحة: فالأمر لا يتعلق، مثلاً بمعرفة الوسيلة التى من خلالها ينقل نشاط من نمط «قضىبى» بعض الإشبعات، بل بإبراز كيف يسد القلم (أو الآلة الكاتبة؟) حاجة رمزية خاصة لن يسدها مجرد الترميق بواسطة مثقب ولا الاستعمال الحرفى لمخرفة طبيب الأسنان ولا استعمال المعمول (هذا إذا افترضنا أن لنا خيار المهنة ومتسع من الوقت للترميقي!). ولا يتعلق الأمر بالتشديد على رغبة فى تخليد الذات نفسها: فالإنسان الطموح يملك وسائل أخرى أفضل من الريشة لكى يصير خالداً، ومن وجهة نظر مادية يحصر المعنى - لكن بالنسبة إلى المنظور التحليلى ألا يغرق الإنسان كله جذوره فى الجسدى، فى العالم الحاضر للإحساس، فى العلاقات الحيوية بالآخر؟ - فإن أصالة فعل الكتابة لا تعود إلى أن الكاتب يكون مسكوناً بصورة جمهور مستقبل ومراقب (الشاهد المتضمن)، بدعوى أن كل فنان ككل صانع يبدع من أجل أحد ما، (كأحد مظاهره) أمام أحد ما أو مكانه. إن أصالة فعل الكتابة، بالمعنى اللازم للعبارة، مرتبطة بأصالة الكتابة فى معناها المتعدى الأكثر حسية الذى يعنى رسم النصى على سناد بكر. وإجمالاً، فهو يعنى رسم النص الأسود على سناد أبيض.

ولا يتعلق الأمر بالتشديد فقط على القيم الرمزية من مثل عدوانية الريشة التى تخدش جلدأ (لحاء أو رقاً أو قَضِماً، واللغة تتحدث عن غلاف كان حياً فيما قبل)؛ ومن مثل التكرار البعيد الذى يحدث عندما يلامس الأصبع خدأ أو صدراً فاتناً

ملاسة مرسله أو مستقبله، ومن مثل محصول المذاذ المصبوب الذى يصير بذراً أو أمانة مقدسة أو أثراً مفروضاً دوائه بالطابع الذى نمنحه له، أو بمماثلة «خريشة»، بوسخ، بلطخة، بتقدمة أكثر أو أقل انتقاماً ذات ماهية برازية (ينبغي أن نستحضر هنا على أية حال اسم أرتو): لاشئ من كل هذا ممكن نفية، فالمتعة اللاواعية فى الكتابة تتجاوز فى إمكاناتها ما تقترحه علينا مخيلة ورعة أو متمدنة.

يتعلق الأمر أيضاً وربما قبل كل شئ بهذا المحاكى، بهذه المحاكاة للعلامة المطبوعة على مساحة جاهزة، المسجلة داخل مكان - زمان يفصل بين مقصد لن يكون هناك أبداً منفذ آخر إليه وبين فهم يتجدد مع كل قراءة، يسمح به النص دون أن يتضمنه مسبقاً. المحاكاة، لكن محاكاة ماذا، وفى ماذا، ولماذا ؟

إن تكرار عملية خارج مكانها ونظامها الخاصيين - ونحن نعرف قوة مايسميه فرويد أوتوهاتية التكرار التى تقدم فى نفسه الوقت الإكراهات المرضية (للفشل، مثلاً) وظاهرة عامة ترتبط بالطابع المحافظ للغريزة («ميك إلى الاستثمار داخل وجودك»، هذا ما سبق أن قاله سبينوزا) - هو مايكون محاكاة الكتابة. وهذا لايعنى إعادة إنتاج محتوى أو صورة أو إحساس، بل محاكاة اشتغال، بمعنى آخر، هو نقش رغبة غير قابلة للصياغة على الجسد وبالجسد نفسه الذى صار، أو بالأصح هو فى طريقه لأن يصير، مرآة متحركة بفضل هذا النقش بالضبط: نقش زائع (مشوه) ومتنكر (ترميزى) ومائل (السقاطات المتوالية المتجنبة التى تكون مسير الفكر). لقد تحدث المحللون منذ بضع سنين عن الشاشة البيضاء «شاشة الحلم» التى يعرض عليها الفيلم، أى مساحة الجلد اللبني للثدى المغذى الذى يعتبر أول مدرك حسى، الذى لاينسى ويكاد لاينقل، ربما هذه هى الورقة. وعلى هذه الورقة خريشات وتخطيطات الرغبة، بدءاً من الرسم الفاحش وصولاً إلى شبكة المفاهيم المجردة. والصراخ ليس أبداً ألماً بل هو ممثله. فما يكتب هو تطوير لما كان ومايزال يصرخ. «إن القصيدة الغنائية عرض لتوجع ما» يسجل بول فاليرى فى مكان ما... وهكذا دواليك.

إن حركة الكتابة تعيد مسافة الرغبة ما بين غيابها والخطاب اللفظى حيث تتسجل تصورات مجازية ثم ناطقة - وبطبيعة الحال، شريطة أن يتعلق الأمر بكتابة حرة،

بكتابة رفيعة، ومن ثم، بتخييل موجه من طرف الرغبة إذا نحن استعرنا صياغة محلل سبق ذكره غالب الأحيان أعلاه (١٨) لكن كثيراً من الحلقات لاتزال تعوز رحلتنا الاستكشافية، ما بين المحطة التي يكونها جمع عدد من التمثيلات اللاواعية فى حكاية والمحلة الأخيرة للنسج: لنعرف شيئاً دقيقاً عن غاية وكيفية مفرق الطرق الذى يحدث حين يستطيع ذلك الجمع أن يصير حلاً أو استيهاماً فى حالته السليمة، حين يدخل منطقة ما قبل الشعور. قد يكون الأهل - وهذا فرض الآن، يبقى فحصه خاضعاً لمخاطر خارجية علاوة على صعوبته الخاصة - فى اتجاه مخطوطات المؤلفات الأدبية: إن المسودة تقدم، قبل كل شىء سلسلة من المعادلات المرفوضة التى يمكن أن يعلمنا فك سننّها الإفادة منها.

فى الواقع، من المعروف أن المحللين النفسانيين لا يستطيعون تفسير الأحلام إلا باستخدام الرصيد الباقى من التداعيات الحرة التى يقدمها لهم المحلل وقت المعالجة عندما يقوم فى إطار «القاعدة الجوهرية» (قل كل شىء، يدور فى ذهنك بدون استثناء)، بدراسة الأثر الذى تحدثه فيه هو نفسه بعض الكلمات المجردة حسب الظاهرة من كل قيمة، من كل معنى، من كل حكمة، من كل طابع شخصى. فالتداعيات الحرة تحاذى الحلم: أليس عدلاً أن نرى جزءاً منها على الأقل قد استطاع التقدم على الصياغة النهائية لنص من النصوص؟

قد تلفت الحثالات الاهتمام إذا قدمت لا فقط معلومات عن فن الكتابة عند شاعر أو روائى، بل وأخبار عن التعابير المجاورة الماثلة القابلة للاستبدال التى كانت قد اعتبرت ممكنة فى لحظة معينة من التأليف. وهذا ضرب من هالة بدء التنفيذ الناقص الذى يشرح النص المحتفظ به فى النهاية والذى «سنصغى» للاستفادة منه، دون اعتبار أن الرباط التحويلي الذى يتأسس بين الناقد والمؤلف الذى يعرض له سيتسع بشدة، منظوراً إليه فى جهده الكامل، فى «شطبه»، فى ترده، فالكاتب يكون أقل مهابة، ويبدو أقل مناعة مما هو عليه الحال عندما يكون ممثلاً (بالمعنيين: الشهرة واكتساب المظهر اللاواعى) بواسطة جاذبية إمضائه. وحتى إذا لم نصبح من «فرأشيه» المقبولين فى الحياة الخاصة، فبالنظر فى تلمسات كاتب كبير نكون قد عقدنا معه روابط أكثر إنسانية فى اتجاه فهم أكثر حميمية.

وهنا، ينضاف آخر مشكل فى هذا الفصل، مشكل الكاتب فى علاقته بالمعالجة - ذلك لان هناك ميلاً يكاد يكون مفرطاً إلى إيقاف الأدب فى حوالى ١٩٢٠.. من المفيد بامتياز معرفة رأى الكتّاب الذين مروا من تجربة الأريكة، وعند الاقتضاء معرفة لماذا يرفض الآخرون، وهم لا يحسون أنهم على مايرام ويعيشون بعد انتشار الفرويدية، يمتنعون عن اللجوء إلى مساعدة أحد المحللين (أهو خوف من القضاء على «النبوغ» والعُصاب فى الوقت نفسه؟). توجد شهادة فى شكل تأمل منظم ندين بها لـ«برنار پانكُو» وهى منشورة فى العدد ٢١٤ من NRF (أكتوبر ١٩٧٠م).

بانطلاقة من جملة فرويد المذكورة سابقا والقائلة بأنه من إثر اللذة التمهيدية فإنّ الأثر الفنى «يهدى» بعض توترات»، نفسيتنا العميقة، يفترض پانكُو هنا وجود «نوع من المعالجة بالنسبة إلى القارئ» (ص١٩٦)، لكنه يؤكد الاختلاف بين المحلّ وقت المعالجة والكاتب، وهو مستلق على الأريكة يتحدث الأول إلى شخص ما، وهو جالس إلى مكتبه يكتب الثانى إلى (باتجاه) غائب؛ أحدهما ينقاد لدفق غير مراقب للانطباعات، والآخر «يختار كلماته». الأول يشير إلى واقع من ماضيه فى اجترار لا متناهٍ، والثانى يطارِد داخل مصيره تخيلاً سيحبس نفسه فى خطاب مغلق، وطبعاً فالجلسات غير ضرورية، بحيث إذا كان الكلام يشق على المريض فإنّ الفنان يزرع تحت عصفه الإلهام؛ وإذا كان المحلل موجوداً هنالك خلف ظهري فإنّ القارئ، «المحترس والمتحمس فى نفس الوقت» يؤثر على الكاتب بحضوره الذى يتعذر محوه، وأخيراً يأتى وقت يعاد فيه المحلل إلى وجوده المستقل بذاته فى حين يصح أن فعل الكتابة، بما أن «الأثر نافر من كماله الخاص»، هو حقاً نشاط لا متناه.... غير أن المعالجة والكتابة ليستا متطابقتين. ولو كانت هذه وتلك، اللتان تتغذيان من الاستيهامات، تلجآن إلى الخطاب من أجل معالجة مادة خام مماثلة، فإن الاختلافات تظل قائمة. نتحلل فى التحويل إلى شخص واقعى، ونكتب فى العزلة لا بل ضدها، نقدم الى المحلل كلامنا من أجل أن يردّه إلينا، ويكون القربان قبلاً جواباً عن إغراء خفى: «إن ميزة الخطاب الأدبى هى فى أن يكون خارج المقام» (ص١٥٥)، فى أن يكون افتتاحياً بالنسبة إلى الكاتب. ما نقوله يحيل على وجه التقريب إلى المعيش الداخلى، أما مانكتبه فهو، ينتمى إلى «الخارج»، ومهما حاولنا استعادته فهو نفسه من يطردهنا خارج نسيج الورقة. وأخيراً، فجمل الأريكة هى الجمل اليومية التى

تلتبس شفافية ملائمة للتبادل؛ أما جمل المكتب فهي تحمل في ذاتها مبتغاهما الخاص: إن الهدف المقصود هو العبارة المثبتة، ويانكو يسمى «التثبيت» (ص ١٥٨)، هذا الأثر الذي كان يسمى في موضع آخر أدبية، القادر على إغلاق اللغة على نفسها، بحيث إن الاستيهامات الموضوعية في النص، كما يستخلص يانكو، ليست موجهة من طرف الوعي من أجل أن تكون قائمة فيه أو مثلفة، بل إنني «لا أحملها إلا يوم العمل الذي يجعل منها، وهو يرسخها بدل تذويبها، أثرا تاريخيا»، فالاستيهام أن يتلاشى هذه المرة، بل سيبقى شبحا، هاهو أبدي بعد أن صار «قرينه» الخاص. «إن الكتابة لا تشفى، إنها تصون (...) فالكتابة ميكانيكية دفاع، وهي بلا شك أصلح من ميكانيكيات أخرى، لكنها ليست الأكثر فعالية» (ص ١٦٢).

لقد تركنا الكلمة الأخيرة لهذا الروائي الذي يتكلم عن بصيرة، وقد جعلناه يثبت ذلك. ومع ذلك، فإن القارئ الأناني سيضيف في سره: إنه لأمر مؤسف بالنسبة إلى هذا الذي لا يسمح له التثبيت إلا بالانتظار، وهذا أفضل بالنسبة إلينا، إذا كان هذا التثبيت يسمح لنا بالأمل.

هوامش الفصل الثالث:

(١) ينبغي أن نحدد بأن الطاقة الراغبة (الليبيدو) قد أدركت من قبل فرويد كسلسلة من الدوافع (الغرائز) المنحصرة في مفترق الطرق بين الجسمين (الجسدي والذهني، النفسي)، فالغرائز لا تدرك، ومن ثم فهي بمعنى ما لا توجد، إلا من خلال اثرين اثنين: الانفعال (الترفيه - الانزعاج) والتمثيلات اللاواعية، يعنى تلك الممثلات (بمعنى النواب) التي تتخذ شكل تمثيلات نفسية (بالمعنى الذي نتحدث به عن «تمثيل شيء ما») والتي تبقى مثبتة في موضعها الأصلي بقايا ذاكرية، والعبارة الألمانية التي تشير إليها، Vorstellung - repräsentanz قد تفهم خطأ إذا فهمت على أنها «ممثل التمثيل»: بل إنها على الأصح «تمثيل ممثل (للغريزة)». ونلاحظ هنا أهمية الغريزة لتعيين نقطة التقاء الجسدي والنفسي إن الاحتفاظ الأولي محدد على أنه تفويض للجسد الغرائزي وهو ليس بالجسد الفيزيولوجي - التشريحي، بل الأصح إنه نظام حيّ فيه يتم فصل وجود العالم الخارجى والاحتفاظ بوجوده الخاص المزود مسبقا بشكل فكري معين («منطق» العمليات الأولية الذي يجهل الزمانية والنفى والهوية).

(٢) إن استعمال هذه الكلمة - وهي ليست ابتكارا لغويا من جانب لكان، بل هي مفهوم نظري جوهري في نظامه - يخلق بعض الصعوبات في دراساتنا الأدبية المطالبة أحيانا بمعالجة «الدوال اللسانية» (نحيل إلى سوسير) عن طريق تحليل تأثيرات التذلل (كالألعاب الصوتية، مثلا) التي يستحيل اعتبارها «دوالا لواعية»، ولو أنه من الملاحظ مبدئيا أن هناك رابطا مفترضا بين الاثنين، وإضافة إلى كون هذه العبارة مزعجة، فإنها نوقشت من خلال وجهة نظر نظرية من طرف الفلاسفة المعاصرين، وإن لم يجدوا استحسانا من قبل لكان، وإعطاء فكرة عن هذا الملف نحيل إلى ليوطار - الخطاب، الصورة - ص ٢٥٠ - ٢٦٠، وبخصوص الاستعمال اللاكاني للسانيات السوسيرية والجاكوبسونية، وبشكل أوسع بخصوص دريدا، نحيل إلى مجلة «شعرية» الفرنسية عدد ٢١، ص ١٤٠، ونحيل أيضا إلى كتاب چون لوك نانسي وفليب لأكو - لا بارت في - عنوان الحرف - دار غاليلي، ١٩٧٣م (ونحيل بهذا الصدد إلى ج. لكان «الحلقة الدراسية العشرون، «Encore» دار سوى، ١٩٧٥م، ص ٦٢).

(٣) وهنا نكتشف التصور اللاكاني للذات: لم تعد الذات هي التي تدير الأدلة، بل إن «الأناء» هي التي تقيم (وهي تتلخص في ألا تكون إلا) تعاقبا للتبدلات، للقطائع التي تنتج داخل «الخيطة» الذي يديره ترابط الدول - تلك فقاعة غياب تنزلق باستمرار داخل الأنبوب، بما أننا تحدثنا منذ قليل عن الفيض أنا لا أوجد «أنا» لا توجد أبدا هنا حيث ينتج المعنى؛ فأنا تشير إلى أن «ذلك يتكلم» لحسابي وعلى حسابي، يتكلم مكاني الذي هو فراغ. فالذات لا تمتلك لغتها، بل اللغة هي من يمتلك الذات: تحملها وتحيطها بشروطها، ذلك لأن الخطاب يؤسسنى كذات غائبة، دون أن تكون لي سيادة حقيقية عما أقوله / تقوله الأناء - وهنا يوجد اللاوعي.

(٤) وهو أن يكون، وليس عيباً في التذكير به، إلا «ابتغاء - القول» المكتسب بحل الشفرة. إن طلب المعنى، والحقيقة التي يكتشفها آخر الذات، صياغة وليس ترجمة.

(٥) لا يبدو من قبيل المغامرة الافتراض بأن التمثيلات الفنية الأولية تنطلق من اعتبار وإعادة إنتاج محاكيين للجسد الإنساني - والنسائي أساساً، وليس إطلاقاً لأن الوضعية الإيديولوجية للواقع تقوم بتفضيل المنظور الذكوري، قدر ما يعود ذلك إلى أن الموضوع الأول للافتتان هو الأم بالنسبة لكل واحدة: هناك حضور المورفولوجيا أمام النظر، وحضور الصوت بالنسبة للآذن، والجسد بالنسبة للمس. فمن هذا الترفيه التشكيلي، تم استخراج أصول الجمال اللساني أو الخطابي بطريق القياس.

(٦) بخصوص الظاهرة العامة التي تربط الطاقة الانفعالية للجميل بحزة عيب، نحيل إلى:

Note sur la beauté, scilicet, 6 - 7, seuil, 1976, p 337 - 342.

(٧) أو بشكل أكثر دقة، بواسطة هذا المظهر الإيجابي الذي ليس قاصداً للآنا الأعلى التي تسمى مثال الآنا. فالرجوع إلى الأركان اللاكائية يبدو هنا ملائماً: بما أن مثال الآنا يتوفر على جزء مرتبط بالنظام «الرمزي»، فإن إغواء اللذة الجمالية سيكون قائماً بفضل قانون الأب ويفضل اندراجه داخل الشبكات (الرمزية) للغة، محمياً من خطر الاستهواء الخيالي، لأن «المتخيل» الذي يتموضع فيه مطلق المتعة يضم نذيراً مضاعفاً قاتلاً للهوية، نذير انفصال (الجسد المجزأ) ونذير انصهار (العلاقة التناظرية).

(٨) يسجل أوكتاف مانوني بأن الإعلاء لا يكون شاملاً إلا فيما نذر، وأن «شيئاً ما من اللا - مُعلى في الرغبة اللاواعية يتمظهر هو الآخر» (نحيل إلى كتابه: مفاتيح من أجل المتخيل، ص ١٠٥).

(٩) يلاحظ أندري غرين في مكان آخر أنه بالإمكان «أن نخجل ونحن نقراء مكتوباً (يعلم أنه «قادر» على ذلك): فهذا دليل على أن كل شيء يحدث كأن منظور الآخر يضغط علينا أثناء القراءة المنفردة. إن «نصي» هو الذي ينظر إلى ويحاكمني بشكل من الأشكال.

(١٠) يبدو أوديب - الملك مثل نص متميز لا يحتاج إلى تفسير لأنه يقوم بإخراج تفسيره الخاص: «المسرحية ليست شيئاً آخر غير إظهار متدرج ومحسوب - تماثل تحليلاً نفسياً - بفعل أن أوديب نفسه «إلخ» (نفس المرجع، ص ٢٢٨).

(١١) لقد أشار شارل بودوان، الذى يزاول فضلا عن ذلك بين فرويد ويونج بجسارة فى توفيقية معقدة ومحيرة - صحيح أن التحليل النفسى للفن يعود إلى ١٩٢٩ - إلى أهمية النرجسية، والوجهان الاستيهاميان للذات ينسب إليهما القدرة على التنظيم المتميز هما «العودة إلى حضن الأم» و«تيممة القرين» اللذان يحملان علامة هذه الوضعية النرجسية ونشير إلى أن بودوان يتحدث عن "narcisme" عندما يتعلق الأمر بالجمالى وعن "narcissisme" بخصوص الطب التطبيقى، وهذه جزئية تثير الفضول، خصوصا وأن فرويد قد سبق أن عدل فى الألمانية عبارة علماء الجنس Narzissismus إلى Narzismus (وهذه هى العبارة الوحيدة التى يستعملها) حادفا المقطع المركزى "is" لاستخرج مسبقا من اسمه المدنى sigismund كاسم يجده تنافر الأصوات (٩) والذى يكتبه على هذا الشكل المعروف sig nd... وعلى الأقل سنستخلص من هذه الحركة التى تتكرر الحجة على وجود أدن تتأثر بالجورسيات اللغوية.

(١٢) سنضيف الى هذا الملف جملة فرويد الآتية: «يملك الإنسان داخل حركيته النفسية اللاواعية (١٣) نحيل بخصوص هذه النقطة الى: س. فرويد، قلق فى الحضارة - ص ٢٥.

(١٤) نحيل إلى: ج. لابلانش و.ج.ب. بونتاليس: «معجم التحليل النفسى»، ص ٣٠٥ - ٣٠٦. إن الاستيهام هو، كما رأينا ذلك، لعب بواسطة معطيات (غير مصاغة) الرغبة برفع مؤقت لحاجز الكبت؛ وداخل المعالجة الكلينيكية توجد ظاهرة مماثلة. تعترض مقاومة ما إن يواجه المحلل مادته الخام اللاواعية الخاصة، مواجهة تحدث كلما قام بتفسير هذه المادة الخام، وهذه المقاومة غالبا ما تتخذ شكل إكراه التكرار: ونسمى الاعتماد هذا العمل الذى يسمح باستخراج عنصر ما من التماسات التى تحدث تلقائيا من أجل التعرف عليه حقيقة، من أجل تمريره من القبول العقلانى (الذى لا يكتفى) إلى إدماج داخل المعيش. ولأنه صوغ استيهامى مدرك وإرادى وواضح، فإن جهد التخيل الجمالى ينحصر فى مكان ما بين الاستيهام التلقائى للحالمين وبين استعادة المادة الخام فى المعالجة الكلينيكية. أما الكاتب - وهو الذى يكتفى بتطبيق وصفات، ومن هنا لا ينصرف الى عمل ديداكتيكى فى فنه - فيمكن أن نقول إنه يعمل عندما يصارع اللغة من أجل التعبير عن ذاته، من أجل اقتلاع شىء يؤرقه فى قلبه، إلا من أجل إيجاد شكل يتكلف بما يبدو مستحيلا قوله بطريقة أخرى. وقد كانت اللغة النقدية التقليدية تردد كل ذلك دون علم منها، عندما كانت تقول بأن الفنان يجد «مُخْرَجاً لآلامه الداخلية وأنه «يعيش» بعمق أفضل من عامة البشر.

(١٥) «إن علم الاستيعاقا يدرس الشروط التى تجعلنا نتأثر بـ «الجمال»، لكنه لم يستطع أن يأتى بتوضيح حول طبيعة وأصل الجمال (النمو الشكلى) وقد أجهد نفسه بغزارة فى جمل جوفاء، مثلما هى رنانة، مرصودة لإخفاء غياب النتائج. ومع الأسف، فعن هذا الجمال، لايقول التحليل النفسى الشىء الكثير» (س. فرويد - قلق فى الحضارة - ص ٢٩).

(١٦) سنسرد هنا جملة كاشفة (لكنها وجيبة كلياً) لصاحبها كُي روزالطو «بإمكان الفنان أن يتخذ إزاء أثره موقفاً استيهامياً لكل عنصر من العناصر المكونة للمثلث الأوديبى» (وظيفة الأب والإبداع الثقافى، «مقالات فى الرمزى»، ص ١٧٣ وسنجد فى هذا الكتاب ملاحظات مفيدة جداً لموضوعنا، رغم أن الرسم كان فيه موضوع اختيار، ص ١٢٢-١٢٨، ٣٠٦، ٣١٤، ٣١٦).

(١٧) نحيل إلى رولان جاكار: «غريزة الموت عند ميلانى كلاين»

Lousanne, L'Age d'Homme, 1971.

(١٨) نحيل إلى: أندرى غرين «التخلخل» مجلة الأدب (الفرنسية) عدد ٣، أكتوبر ١٩٧١ م، ص ٣٨. وهذا المثال الممتاز جداً سيكون حاسماً إذا كان من أجل هدفه الصريح إلى منح المحللين وحدهم الحق فى قراءة نص بواسطة التحليل النفسى، ينطلق من سلسلة مقلقة تصعب الموافقة عليها باعتبار كل ما حاولنا بيانه، هكذا قدمت المسلمة بكل وضوح «إن الخطر الذى يركبه (المفسر المحلل) هو إذن أن يفشل فى القبض على المعنى اللاواعى للنص». وغرين يعرف أنه ليس للنفسية «معنى» يمكن فكّ سننه (وليس من الخارج خاصة، ومن طرف آخر). فلماذا يريد من النص أن يكون له معنى (ومعنى واحد فقط)؟ لماذا يريد ذلك إن لم يكن وبمجهود قليل الدقة من أجل أن يكون النص أمامه، هو المحلل، محللاً؟ وهنا نجد أنفسنا أمام فتح من المفروض أن نعود إليه فيما بعد (نحيل إلى الفصل السادس من هذا الكتاب): ربما أن النص يملك شيئاً كاللاشعور، لكنه ليس لا شعوراً؛ لأنه لاغريزة له، ولا رغبة / رغبات أخرى له غير رغبة الكاتب المفقودة ورغبة القارئ المغامرة دوماً، (وإذا «استمتع» القارئ، فإن النجاح قد تحقق: ليس هناك قراءة تحليلية سيئة للنص، إذ ليس إلا تفسيراً معروفاً باستحالته أو تدخلاً بدون لذة، فالرغبة فاقدة وستبقى مفقودة، و«الخطأ» يمكن أن يقع على عاتق النص أو على عاتق القارئ، هنا والآن). وغرين نفسه سيكتب بعد هذه السطور: «إن الإحياء الذى يحدثه التفسير يشهد على خصوبته أو على عمقه: وهذه الجملة لا تصلح فقط للمعالجة الكلينيكية. «فبمجرد أن اتحدث عن رغبة النص ويقوم كلامى بإشباع رغبة (رغبتى، رغبة الناقد، و/ أو رغبتى، رغبة قارئى الذى هو القارئ، معنى لنصنا المشترك)، فإن قراءتى ممكن قبولها سواء كنت على «حق» أو لم أكن. الأمر الذى لايعنى مرة أخرى أننى قد كشفت عن «المعنى اللاواعى للنص»، وهو مقيد اليدين والرجلين: ببساطة إذا استطعت أن أطعم بعملى اللاواعى العمل اللاواعى للنص، تماماً كما يطعم ناقد آخر بثقافته التاريخية تاريخية النص، وكما يطعم ناقد ثالث بكفائته الشعرية التنظيم الدال الذى يؤسسه داخل النص، وإلا فلا يلزم الحديث، كما يفعل غرين بحق، عن حظ مختلف المواقف النقدية فى أن تنجز داخل النص، قصد الضبط، «تطبيقاتها».

الفصل الرابع

قراءة الإنسان

«من الملاحظ أن مجال الخيال كان ولا يزال «مخيرة» تكونت عند الانتقال الأليم من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع لأجل منح بديل للإشباع الغريزي الذي تفرض الحياة مفارقتة. فالفنان، كما العصابي، ينصرف بعيدا عن هذا الواقع الذي لم يعد كافيا إلى هذا العالم من الخيال، ولكن على خلاف العصابي، فهو يعرف كيف يهتدى إلى طريق الواقع الراسخ. فآثاره تكون إنجازا متخيلا لرغائبه اللاواعية تماما كما الأحلام، التي تقاسمها، فضلا عن ذلك كونها منزلة وسطى بما أن على هذه كما على تلك إلا تواجه قوى الكبت بشكل مباشر. لكن على عكس إنتاجات الحلم اللا اجتماعية والفرجسية، فآثار الفنان تظهر قادرة على أن تلقى قبولا لدى الآخرين، وعلى إيقاظ وإشباع نفس الرغائب اللاواعية لديهم».

(س. فرويد: حياتي والتحليل النفسي، ص ٨٠)

لقد حاولنا حتى الآن أن نتبين الفرضيات ووسائل المقارنة والسياق العام للروابط الإنسانية الذي تنطلق منه النظرية الفرويدية حتى يمكننا أن نطمح في إيصال دراسة المشاكل التي يثيرها علم الجمال الأدبي إلى بعض النتائج، لم يكن الحديث يجرى إلا حول شروط الفن وإنتاجه واستهلاكه، أبدأ لم يكن حول الآثار التي تكون الأدب والتي صارت أو ستصير مؤلفة ومنشورة. والأهم أيضا وفرة وفائدة حصّة

الاعمال النفسانية المخصصة لواقع الكتابات. ومرة أخرى، نجد فرويد يشق الطرق. بل إن هذا الرجل النابغة قد افتتح كل جدول الأعمال دون أن يهتم بالتبعية الخاصة باستبصاراته. إن إنتاجاته الموزعة على امتداد عشرين سنة لا تزعم عرض نمو فكرته عن الفن، ليس أكثر من أنها تعين الأولويات. وقد كان تاريخ التحليل النفسى فى أيامه وبعده أكثر توجيهها. وإجمالاً - وفرويد موضوع جانباً - فإننا نعاين فيه بطيئة خاطر ثلاثة أصناف من الانشغالات، ثلاثة مراكز من الاهتمام مستكشفة عبر العصور بطريقة غير متساوية: الإنسان، إنسان، الآثار.

كان الانطلاق بتفضيل ما يبدو أقل تخصيصاً فى الفن الأدبى باتجاه ما يحدده مباشرة، أى المحتويات الكونية، باتجاه التشغيلات السرية فى كتابة ما. ومن المحتمل أن القطيعة القابلة للعزل التى عرفت موضعها حوالى منتصف هذا القرن مرتبطة بازدهار الفكر البنيوي، أو على أى حال مناهج التحليل البنيوي: إن فينومينولوجيا التجارب النفسية قد تنازلت عن الريادة لصالح (علم) تأليف العلاقات الدينامية موحدة الوحدات القابلة للعزل التى تعزلها عن الأفعال الإنسانية. والتحليل النفسى لم يكن يجهل جهلاً تاماً هذا التحول الجديد الذى يضر بحقل المعرفة والذى ينعت بسمة «موت الذات»: الإنسان مخلوع عن عرشه، انتزعت منه السلطة التى كان من المفترض أنه يباشرها على أرض الواقع فى نفسه وفى الخارج. ويستحيل أن نكرر كما فى العصر الكلاسيكى: «أنا سيد نفسى وسيد الكون»، وفرويد وماركس ونيتشه، باعتبارهم «فلاسفة الشك»، قد مروا من هنا (نحيل هنا إلى ميشال فوكو) والعلوم الإنسانية قد اندفعت إلى هذا النشاط (وهنا نحيل إلى ليفى ستروس أو إدغار موران).

١ - الإنسانى والرمزى:

بأية مفارقة، إذن، عُنون هذا الفصل بـ «قراءة الإنسان»؟

بكل بساطة، لأن هذا الاسم، المكتوب بشكل مغاير، يبدو هو الوحيد الجدير بأن يجمع ثمانية ما يتموضع بين نظرية الجهاز النفسى مثلما يشتغل فى سجل علم

الجمال وبين الإنجازات الخاصة بكاتب معين. وبشكل أكثر دقة، ستكون هذه اللحظة مرحلة وسطى بالنظرة الشاملة إلى مختلف أنماط مقارنة الموضوع الأدبي بحصر المعنى (يعنى الكاتب والنص). هكذا سنجد أربعة أركان: محكيات نموذجية، أنماط وجوافز، أجناس أدبية، نماذج شكلية - ومن أجل تثبيت الأفكار، فإن هذا يعنى: حكايات خرافية، حالة دُون جوان، العجائبي، إلحاح استعارة ما. مقولات يسميها جيرار جينيت (Palimpsestes, Seuil, 1982) بالـ«عبرنصية»، لأن النصوص والكتّاب يستخدمونها، يستثمرونها، يلجأون إليها بطريقة أو بشدة جديدة. إنها ليست وقفاً لا على عصر ولا على لغة ولا على فرد ولا على مكتوب واحد، ذلك لأنه لا يمكن تعيين أصلها، وابتكارها لا يمكن إسنادها إلى شخص معين. وباختصار، يمكننا القول إنها تنتمي بكل المتغيرات الممكنة إلى الراسمال الرمزي للإنسانية. إن استعادتها بلا نهاية وإعادة كتابتها واستخدامها من جديد يدرجها ضمن تقليد يفرق، كما يقال، في ليل الأزمنة، وفي ليل اللاوعي كما يمكننا القول.

إن الحديث عن القيم الأصلية للإنسانية يثير مشكلين. ما هي هذه «الإنسانية»؟ سيعترض المؤرخون، الماركسيون بالخصوص، الميالون إلى الاشتباه في وجهة نظر إيديولوجية كلما بدأ أنه تم نسيان تعيين العوامل الإيديولوجية الجديرة بتحديد عصور فضاءات الثقافة؟ وفضلاً عن ذلك، إذا كنت تبحث عن «القيم الأصلية»، فإنك ستقتل الفرادة التي تحدّد قيمة الأثر الفني، وسيحتجّ الأدباء الحقيقيون قلقين من النظر إلى فكرة الجمال نفسها وهي مقحمة داخل خصوصية العبقرية، وسننسى أن الفرق هو حسبهم مسألة «أسلوب»؛ أى أنها مسألة كيفية معالجة التيمة أكثر مما هي مسألة محتوى (هذا الذى ينسبونه إلى آدمى الإنسانية الكلاسيكية بشكل أسهل من نسبه إلى آدمى المادية المنسولة).

لن نعود إلى هذه الهجومات المعروضة مرات عديدة في الساحة، والتي يسهل أن نبين لهم أصلها - فالتحليل النفسى يفضحها على أنها إنكارية (١) - قدر ما تسهل الإجابة بكيفية استدلالية، وبعض الكلمات التوضيحية لابد أن تكون كافية. إن الذى

يصنع الإنسان، قبل تطوّر العقل التقنى، هو ظهور الرغبة على الهامش، بالإضافة إلى الحاجات. فالأدمى الصغير يولد مخدوجاً، وينبغى الاهتمام به اثنتى عشرة سنة قبل أن يصير استكفائياً، قادراً على البقاء: ربما هنا يكمن سر ارتباطاته الوجدانية النوعية التى تستلزم إنشاء ملائماً لمحرّم ارتكاب المحارم - وهذه هى النقطة الوحيدة التى عن طريقها ينتسب الجهاز النفسى العميق إلى تاريخ لا علاقة كبيرة له بالتاريخ العام، بما أن كل شىء فيه يجرى بين الطفل والآباء. صحيح أن اللاوعى يشغل داخل لسان خاضع لشروط فضاء وزمان معينين، لكن العمليات الأولية تكون «لا تاريخية»، ذلك لأنها تجهل الزمانية الموجهة (الماضى - الحاضر - المستقبل). وإذا كانت الأنا الأعلى تدرج عناصر خاصة فى كل تنظيم ثقافى، فإن اشتغالها يتعلق بميكانيكية ثابتة، فالـ «هذا» Le ça يأتى مكوّناً من غرائز ثابتة مثلما الأساس الفيزيولوجى، أما بالنسبة للآنا فهى تتصرف وتحمى نفسها بطاقة دائمة ومستقلة عن الوسائل العلمية التى تستعين بها قصد التموضع إزاء الواقع. ومنذ الصيحات الأولى للمالينوفسكى، أخفقت المعارضة «الثقافية» للتحليل النفسى، وعلماء الاجتماع يهاجمون اليوم «التيار النفسانى» (باعتباره ممارسة فى الغرب) أكثر مما يهاجمون نظرية اللاوعى. ومن جهته، فإن احتراس المتخصصين فى الأدب من الفرويدية مرتبط بحكم مسبق موجه ضد كل العلوم الأخرى كالتاريخ (الوقائى بشكل عام) والفيلولوجيا، وتستمر الإشارة بأن معلّلات ودلالات الرغبة ذات الأصل الجنسى تكون مهينة بعض الشىء مجردة من الطابع الإنسانى، وأحياناً تتم السخرية، باسم عقلانية متجاوزة وباحتداد ظلامى، من كل محاولة تسعى إلى الخروج من الاجترار السيكلولوجى والقداسى الذى لا يريد الحديث إلا عن الأهواء والقيم والعقل بلغة أرسطو، والذى تلذّ له الثرثرة حول سير وعظمة العبرى الذى لا ينبغى مسّه بسوء لأنه مقدّس أو ينبغى أن يبقى كذلك.... والأخطر هو هذا الخوف من ألا يكون للنص معنى (سليم) «الشىء الوحيد المتفق عليه بأفضل شكل؟» موضوع دوماً من أجل ترسيخ نبألتنا، قدر ما يعرض نفسه لشروحن البسيطة. وهناك نفور من أى جهد لاكتساب جهاز مفاهيمى «جديد» يمكن من تطوير دراسة الأدب، هذا المحكوم عليه بأن يبقى مستودعاً طاهراً

للعبارات والأفكار الأزلية: وقد تحول هذا المستودع منذ عهد قريب إلى مزبلة، بل هو مستودعها العام.

إنّ ما يرفضه على السواء رواد الأنثروبولوجية الوضعية المستوحاة من المذهب السلوكي أو المذهب المادي التاريخي للزمان الماضي، كما أولئك الذين يبقون متمسكين بتصوير إنساني عن الفعل الأدبي، هو مبدأ حركية الترميز لا تخضع لقوانين التبادل البسيط والمحكم. ولهذا ترعبهم وجهة النظر النفسانية عندما ترغمهم على ألا يفكروا بعبارات الشفرة، ولا يتصوروا أن الإنسان هو سيّد شفراته. صحيح أن هناك رفاهية في استبدال حاضر بمقارنه، وليس أقل صحة أن هذا التكافؤ الذي يؤسس نظرية الدليل (والمشاريع «السيمولوجية») لا قيمة له داخل نظام الرمز، وأنه من الضروري أن نقبل مقابل التفسير صرف النظر عن الترجمة - فبالنسبة إلى تلك الذات التي لا توجد أبداً، بفعل اللاوعي، هناك حيث نعتقد (نعتقد) أنها توجد، يزخر الخطاب بتلك الدلالة التي يستثمرها - دلالة لا تبلغ ولا تنجح في المرور داخل الوجود اليومي إلا بطريقة تقريبية (وبطريقة شافية داخل سياق التقنية ذي التشفير المفرط). إن تدخل المتكلم وتدخل السامع وسط الرسالة المزعومة يخل بكل أثر اللغة المحكوم عليها مبدئياً بالتواصل. فأيسر استعارة تبعد المعنى إلى إحياء يستحيل توقيفه: كيف يمكنها أن تكون محايدة؟

لنأخذ على سبيل المثال اللغز المشهور الذي يعالجه أوديب فالوحش - الذي نسميه أبا الهول (سفنكس) ويسميه الإغريق واللاتين «السفنج» ويشك المصريون في جنسه: سنقبل الآن أن لا أهمية لهذا الأمر - سيسأل عن «ما الحيوان الذي يسير على أربعة أرجل في الصباح، وعلى اثنتين في وسط النهار وعلى ثلاث في المساء»، وهذا أوديب الحكيم يترجم: «الإنسان» طفلاً فرجلاً ثم شيخاً يستعين بعصا. وهذا ما يُعيد الميثولوجي^(٢) ترجمته في شفرة كونية: الإنسان كالشمس (مشرقة، ثم بالغة أوجها، ثم غاربة) والملك - الفرعون إلهي. وسيقول المحلل النفسي: بلا شك، بيد أننا سنفهم أيضاً: الوليد، فالطفل اللاجنسي في مرحلة الكمون^(٣)، ثم هذا المراهق ذو العضو الثالث الذي يكون في الوقت نفسه عصا

لضرب الأب بلا تبصّر (؟) للطريق، وقضيبا لامتلاك الأم (وقد أظهر أوديب ذلك جيداً)، وإيضاً برازا مقدماً من أجل إغرائها، حقاً إنه الطفل المتسلم والمتنظر من طرف الأب، وأخيراً فهو العضو الذى يمكن أن يؤدى بنا إلى الحرمان وإن... إلخ. وبالنسبة إلى من يستند إلى الأسس الفرويدية، فإن كل تكوين رمزى سيجد نفسه فى متناول دليل هذا الدلّخ: هناك دوماً شيء آخر للاستبدال، للإدراج داخل سلسلة الإضافات.

ولأنه يتجدد ويعاود، فالتفسير لا نهاية له مثلما التحليل العلاجى. وهو كهذا الأخير، لا نوقفه إلا على إشباع مؤقت، وهو عابر على أى حال، على وجه تقريبي: فهما يستندان فى آخر المطاف، فى آخر الحكاية، إلى صيغة للرغبة الأصلية غير قابلة للصياغة، يستندان إلى سرّة الاستيهام، وببساطة، فهما محصوران غالباً فى إحدى الصياغات الشرعية التى تقطع الجهاز النفسى والتى نسميها بالاستيهامات الأصلية: العودة إلى الحضن الأموى، المشهد الأولى، الإغراء، الخصاء. وفى النهاية، يضاف كل رمز إلى هذه الإنتاجات الأولية، ولهذا لم يعد هناك من داع إطلاقاً للحديث عن اللاوعى الجماعى^(٤): إن كل ما يحضّر الفرد وما تنشره خطابات صوت الشعب Vox Populi المميّزة قليلاً يجد هنا أصله، إن لم نقل بنيته. ولهذا أيضاً، فإن فائدة القراءة النفسانية للنصوص الأدبية، التى لم تكن تركز على فكّ الشفرة، تبدأ منه لكى تحصى وتحل الخيوط التى تكوّن لعبة التحويلات، وليست معادلة الاستعارة بما ينبغى أن يستوقفنا (هل هناك شيء آخر اتفه من مساواة؟ فى النهاية هناك دائماً O=!) بل العملية الاستعارية نفسها ومسافة التسعير. وليست قائمة الرموز، بل تشغبل ترميز ما. فالرمز ليس مفتاحاً، إنه عمل.

٢ - خرافات وحكايات وأساطير:

سنستمر، إذن، فى افتراض التصور النفسانى قادراً على إحضار ما يجعل من اتصالنا بالأدب الكونية أكثر تنويراً ووضوحاً وخصوصية. ولأن لكلّ مقام مقالاً، فلذلك سننطلق من هذه القصص الرمزية التى تحكيها لنفسها القبائل والإثنيات

والشعوب والحضارات، وهى القصص التى تجد نفسها تحكى مغامرة بطل (إنسان أو حيوان) «فى قديم الزمان»، مهمته إبراز تماسك الجماعة ولا سيما تجسيد مصدر عُرِفَ له قوة القانون. فابتداءً من التعليمات التى تستحيل مخالفتها بشكل مطلق وصولاً إلى أبسط وصايا حكمة الأمم، فإن مُجمل قائمة التشريع المسمى «طبيعياً» يجد تبريره فى مثل هذه «الكتابات»، ما يسميه القدامى بالقوانين اللامكتوبة، وهو ما ندركه اليوم على أنه جسد التقاليد والعادات الذى يصعب أن نعاين فيه الإكراهات الإيديولوجية. فمنذ أجيال، لم نعد نرى فى هذه الحكايات إلا «قصصاً» نطلع الأطفال عليها قصد إفتان خيالهم - والأطفال يطلبونها كى يستمدوا منها بشكل لا واعٍ حق التلذذ باستيهاماتهم من فم رآو عائلتي.

والعديد منها، وهو مأخوذ من متون أكثر قدماً أو من التقليد الشفوي، قد كان مستمراً من طرف التراجيديا أو الملحمة، لا بل من طرف الروايات الأولى.

إنها تتخذ أسماء مختلفة، تبعا للسياق الثقافى الذى يراها تستحق التدوين (بواسطة الاستذكار وبفضل الكتابة): تسمى خرافة فى الأديان متعددة الآلهة، واسطورة فى الأديان التوحيدية، وتسمى ساغة وقصيدة ملحمة فى شعائر البطل العائلي أو الوطنى، وحكاية تراجيدية (Märchen) أو عجائبية (الحكايات الخرافية) موجهة إلى جمهور معروف أنه بسيط وعامى. وتتباين كثيراً أبعادها ولغتها وإفراطها فى الدقة. ولها كلها قواسم مشتركة؛ منها أولاً أنها تتموضع على هامش الأدب الرسمى بصفتها إرثاً فولكلورياً أو إرثاً قديماً، ثم إنها بخاصة إخراج، هى المدفوعة داخل ماضٍ أقل أو أكثر تحديداً («وكان ياما كان...» فى غابر الزمان In illo tempore إلخ)، لشكل استيهامى منزلته من التشييد الشعري لا يبدو أنها تنمى القارئ، الغربى الحديث(٥).

إذا كانت هناك ترسيمة عامة، فإنه يمكن حصرها فى صراع البطل ضد قوى عدائية حتى النصر، ثم نهاية تكون إما تأليهاً (الموت بسبب انتهاك ممنوع، متبوعاً بالتغير أو التحول إلى شخص إلهي)، وإما بلوغاً للجنسانية التناسلية («يتزوجون

ويلدون أطفالا كثيرين» - إنها ترسيمة تسمى توجيهية لأننا نجدها فى كل طقوس المرور إلى سن النضج^(٦). وهى بهذا التفرد كلما فرض التوجيه الواقعى أو الطقوس على رجل المستقبل تخلق نوع من التولد النشط، فتوحات أو تزهد، يتعلم من خلالها قبول التضحيات التى يفرضها عليه الواقع، إنها المؤسسة الاجتماعية التى تسعى إلى دمج أعضاء الجماعة فى الحالة السوية (وأحيانا الحالة السوية للنخبة، لكن هذا لا يغير من الأمر شيئا). أما الحكايات سواء كانت أو لم تكن فى قالب درامى، وحتى إذا شُخصت على خشبة المسرح، فهى ليس لها إلا دور الاغتراب، وحتى إذا كان على الوعى أن يستخرج منها درس تجربة، فإن الطبقات العميقة تتلذذ بإتمام الاستيهامات المستحضرة.

لن نغير رأينا فى إسهامات فرويد فيما يتعلق بخرافة أوديب^(٧)، وقد صارت «مركبا» بما أنها تنظم عدداً من متتاليات السيناريوهات النموذجية المسماة استيهامات أصلية. نحن مدينون له بهذه الملاحظة فيما يخص الخرافات، «إنها عبارة عن بقايا مشوهة من استيهامات رغبة أمم بأكملها، إنها الأحلام العريقة للإنسانية الشابة» (س. فرويد: مقالات فى التحليل النفسى التطبيقى، ص ٧٩). لقد طرح أسئلة حول المواد التى يقدمها له إثنوغرافيو زمانه (الطوطم والتابو، ١٩١٢)^(٨). وقد شجع بعض تلامذته الأوائل على متابعة الأبحاث فى هذا الاتجاه. ونحن نعرف بخاصة دراسة كارل أبراهام «الحلم والخرافة» (١٩٠٩م) المُرَكزة حول خرافة بروميثيوس Prom'eth'ee، ودراسة أوتورانك «خرافة ميلاد الأبطال» (١٩٠٩م) التى تبرز أن كل مهمة بطولية مقدرة بحادثة ولادة (تشوه فى البنية الجسدية، آباء «غير طبيعيين»... إلخ^(٩)، وأعمال جيزا روجيم، الإثنولوجية والمحللة فى الوقت نفسه، عن أبناء ميلا نيزيا وعن أقرب الخرافات إلينا (Castor et pollux) (Donaides)^(١٠).

إلى هذه الإسهامات الكبرى، ينبغى أن نضيف دراسات حديثة لكل من مارك سوريانو (ثيمة التوائم فى الحكاية العجائبية، حكايات بيروت، جاليمار، ١٩٦٨)، وبرينو بتهليم (التحليل النفسى للحكايا الخرافية، لافون، ١٩٧٦) وأعمال^(١١).

إضافة إلى اللوحات النظرية لديدي أنزيو(١٢) ولؤسس الإثنولوجية النفسانية جورج دفرو(١٣) ولؤسس «التاريخ النفساني» آلان بوزانسون(١٤) ولؤسس السوسولوجيا النفسانية، جيرار مونديل (١٥).

٣ - النماذج والحوافز:

نجد صعوبة كبيرة في أن نميز من هذه الأعمال عن الحكايات البدائية «تلك الدراسات المخصصة من جهة للحوافز التي نجدها في كل مكان، ومن جهة أخرى للشخص النمذجية التي تصور، كما يقال، مظهراً من مظاهر الوضع البشري». لقد انكب أوتورانك، مثلاً، على دراسة حافز ارتكاب المحارم - (١٩١٢م) في الآثار الأدبية والأساطير: إن هذا «الحافز»، وقد كان ولا يزال قصة أوديب، تمت معانيته من طرف إرنست جونس عندما قابل بين هاملت وأوديب(١٦). ومن جهته، يقيم أندري غرين ملاحظاته عن العرض المسرحي (في كتابه - عين زائدة - السابق الذكر)، استناداً إلى تحليل مجابهة بين أوديب وأبي الهول، إلى تحليل أريست قاتل والديه، إلى تحليل عطيل. وعندما وضعت سارة كوفمان لقسم من كتابها - أربع روايات تحليلية - (غاليلى، ١٩٧٣م) هذا العنوان «جوديث»، فإنها خولت لهذه البطلة بعداً لم يكن لها في مسرحية هيبيل التي استخرج منها فرويد (في كتابه - الحياة الجنسية - ص ٦٦ - ٨٠) مشكلاً غالباً ما يستحضر في الفولكلور والفن: هو مشكل «تابو البكارة». والحالة الأكثر تعقيداً هي حالة دون چوان التي كانت موضوع كتاب لأتورانك (١٧)، ذلك لأن هذا النموذج ينظم قيماً بالضببط لا شعورية (الترجسية، الانحطاط الأخلاقي للموضوع، المكونات الجنوسية) بمعطيات مرتبطة بتاريخ المجتمع الأرستقراطية الفيودالية) وبتاريخ الإيديولوجية (الزندقة المجدفة).

وتستحق الذكر مقالات منها مقالة كاترين كليمون عن الخنثى («الخرافة والجنسانية - مرايا الذات»)، ومقالة فرناند كامبون عن الغزالة في بعض الأشعار والحكايات الألمانية (مجلة - الأدب (الفرنسية) - عدد ٢٣ - ١٩٧٦)، ومقالة روجيه دادون عن مصاص الدماء (الفتيشية في أفلام الرعب - المجلة الجديدة للتحليل النفسي (الفرنسية) - عدد ٢ - ١٩٧٠) إضافة إلى أعداد أخرى من هذه المجلة من

مثل «مصائر الكانيبالية أو «النرجسيون» (- المجلة الجديدة للتحليل النفسي، عدد ١٦ - ١٩٧٣م - وعدد ١٣ - ١٩٧٦م) حتى لا نشير إلا إلى بعض الطرق المعبّدة في هذا الحقل الذى يشبه كثيراً الدغل، وفرويد نفسه يمكن أن يساهم بهذا الصدد. ففي دراسته - حافز العلب الثلاث - (١٩١٣م)، يستحضر مسرحية شكسبير - تاجر فينيسيا - التى يفرض فيها الأب على ابنته الزواج من أحد المرشحين الثلاثة الذى سيعثر على صورتها التى لا تختبئ لا فى علبة الذهب ولا فى علبة الفضة بل فى علبة الرصاص. وبعد أن أبعد تفسيراً من النمط التنجيمي (الشمس - القمر - المذنب)؛ إذ رأى فيه رمياً بالتعليلات اللاواعية فى الفضاء السماوى، نجد فرويد يقرب «هذا الحافز من الاختيار الذى يقوم به أحد الرجال بين النساء الثلاث»، (نحيل إلى مؤلفه: مقالات فى التحليل النفسى التطبيقى، ص ٨٩) من اختيار مماثل للذى قام به «الملك لير» ومن محاكمة باريس، ومن حكايات Psych'e وسندريللا Cendrillon (حيث تظهر ثلاث أخوات): علبة الرصاص، الفتاة الصامتة، الإلهة الثالثة، المحرومة من الإرث، الأخت سيئة الحظ، إنها نفس أوجه الموت - أو إنها الإلهة الثالثة أتروبيوس (١٨).

وهى أيضاً أوجه «العلاقات الثلاث المحتومة بين الرجل والمرأة»، يعنى: الوالدة، الرقيقة، المدمرة، وهى فى آخر المطاف أوجه «الأشكال الثلاثة التى من خلالها تتقدم فى مجرى الحياة صورة الأم نفسها: الأم بما هى كذلك، ثم العشيق التى يختارها الرجل على صورة الأم، وأخيراً الأرض - الأم التى تسترده من جديد» (ص ١٠٣). وينبغى أن نقر بأن الحافز يستحق هذا الاسم لأنه لا يكون مجموع الحبكة الدرامية أو الروائية: إن الفولكلور غنى بمشاهد من هذا النوع، وهى تندمج فى متتالية أكثر اتساعاً وتكون قابلة للاستثمار الأدبى.

وقس على ذلك بالنسبة إلى دراسة أخرى عنوانها «بعض النماذج من طبائع مستخلصة من طرف التحليل النفسى» (١٩١٦م). وفيما يستحضر فرويد الأدب ليوضح بعض نماذج السلوك الكونية: ميل لدى المرء يجعله يعتقد بأنه «استثناء»

وإدعاء جرح نرجسى أصلى قصد الانتقام من الآخرين بكل شرعية (المثال المنسوب إلى ريتشارد ٣) ثم الاضطراب المرضى الناجم عن نجاح رغبات كان السعى وراء تحقيقها طويلاً:

(Lady Macbeth, ou la Rebecca des Romersholm d'Ibsen)

هكذا يمكن الانتقال من علم النفس - المرضى الأكثر يومية وصولاً إلى أكبر الأوجه التي تتمحور حولها نظرية الرغبة: إيروس وثاناتوس، أو «البحر الأصلي» (١٩) (وهو موضوع - Thalassa - لساندرو فيرنزي)، ويمكن استحضار الشيطان كما فعل فرويد في «عصاب شيطاني من القرن ١٧ - ١٩٢٣». أكثر من هذا أنه كانت هناك إمكانية التفكير في رسومات تخطيطية أو أبعاد لإدراكنا تبدو كونية: منها العناصر التي لها قيمة كبرى لدى غاستون باشلار، غير أنه بإسراف في اللغة، صار باشلار ناقداً بارعاً، وقراءاته للشعر قصائد حقيقية - وهي تتطلب بهذا المعنى تفسيراً (٢٠). لكنه لا يستعمل عبارة «التحليل النفسي» بمعنى دقيق وصحيح («عندما يتحدث عن اللاشعور في النقد الأدبي فإن الأمر يتعلق غالباً بالأحيان، خلافاً ليونج (المفضل لديه) كما لفرويد، بما قبل الشعور، بمعنى (...) العلاقات التضمينية المهمة لقصدية حالية، يؤكد قانسان تيريان مستشهداً ببعض المقاطع» (٢١)، لأنه كان منشغلاً بفينو مينولوجيا الخيال اللفظي، لا يمكن لأي تحليل نفسي أن يفسر بوجه آخر، إلا بطريق القياس خريز المياه وهدير الرياح واندفاع النار، ولا لأي خطاب سهل أو مُستعص على الحقل. إن «التحليل النفسي للمادة» مشروع يقوم على سوء فهم. ويبقى أن باشلار يقرنهم القراءة الجيدة بهم تجاوز فوروية المعنى الواضح، وأن «النقد الجديد» مدين له بقدرته على استدعاء نظرية اللاوعي للقراءة، دون أن يثير ذلك ضجة كبيرة: إن كتابة «لوتريامون» (Corti، ١٩٣٩) قد غيرت بكيفية غير قابلة للانعكاس أفق دراساتنا وخصوصاً في الشعر.

٤ - الأجناس الأدبية:

لكن إذا كان فرويد قد شق الطريق في اتجاه التخيل، فإنه قد تراجع أمام

الشعر، مع أنه يذكر الشعراء في كل لحظة. لكن أفكاره قد قادت المحللين والنقاد إلى التساؤل عن دلالة هذه الأشكال الأدبية التي نسميها أجناسا. بدءا بالمرسح، فن الإرامه والتكليم، الذى ليس بسذاجة يقارن مشهده بمشهد الحلم، وبشكل أوسع بمشهد اللاوعى.

بالإضافة إلى أعمال أندري غرين التى درسناها أعلاه، لابد من التنويه بكتاب له نفس الأهمية لاوكتاف مانونى «مفاتيح للمتخيل، أو المشهد الآخر» (سوى ١٩٦٩م). فقد خُصِّصَتْ فيه مقالة لـ «الوهم الكوميدي» (ص ١٦١ - ١٨٣) إما لهذا النمط من الاعتقاد الذى يلحقه المشاهد بما يشاهده (ينبغي أن نعلم أن ذلك ليس حقيقيا حتى تكون صور اللاوعى حرة حقاً ص ١٦٦)، وإما فى التقمصّات والإسقاطات التى تعتبر الأنا النرجسية مكانها الحصرى (٢٢) والتى يتضاعف فيها أثر التحرير بتجميد دفاعاتنا (ص ١٧٦)، أما العروض المسرحية اللا «كلاسيكية» فهى تستعرض بحدة فى هذا الكتاب: الأراجوز، السيرك، الفيلم، و Striy - Tease (تجرّد المرأة من ملابسها على خشبة المسرح قطعة قطعة على أنغام الموسيقى والرقص) البهلوان. ويقابل ملحق الكتاب بين «المسرح والحمق» عبر المسرحية التلقائية لـ «ممثل الواقع»، دجالين وممسوسين آخرين. إن مانونى محلل مولّع بالمسرح، أما شارل مورون، الناقد قبل كل شيء، فاهتمامه مع ذلك بالمعطيات الشكلية لفن المسرح أقل من اهتمامه بمضامين الملهاة: فكتابه «النقد النفسى للجنس الكوميدي» (Corti, 1963) يثير مشكل الشخصيات التقليدية والأوضاع الشرعية. إنّ الملهاة هى هذا العرض المسرحى الذى يقوم بقلب التمثيلات المولدة للقلق إلى صور نصر متسمة بالغلو: عندما يسخر فتى المسرح من عجوز، فإن الثار يأخذ مكانه فى العرض التراجيى حيث يُسحق الابن بإرادة الأب أو بكلمة منه، أو بكل بساطة باسمه. لهذا ستأتى الفرضية الأساسية فى صيغتين: تقتضى كل مسرحية شخصية مركزية (ليست بالضرورة هى البطل) تمثل الأنا اللاواعية، وهذا «البطل» يتحمل الاعتداءات فى المأساة ويرتكبها فى الملهاة. إنها الترسيمة الأوديبية المرتكزة إلى الفرق بين الأجيال وبين الذكر والأنثى التى يمكن أن تضاف

إليها إحالات إلى مراحل ما قبل أوديبية في الحياة النفسية (البخيل عجوز يدخل في منافسة عشق مع ابنه، لكن البُخل نمط سلوك يرتبط بتعلق شرعى)، إن سيناريوهات ذخيرة التهريج تتعلق بالتكوينات الاستيهامية التى تعتبر هى تكشفاتها المبتذلة والتكرية: إنها عكس الخرافة (٣٣).

وبخصوص الرواية، لن نكثر من المرجعيات، ما قد يقال كثير، لكن المقروء قليل بسبب وجود مؤلف مهمّ لمارت روبير: «رواية الأصول وأصول الرواية» (غراسى - ١٩٧٢، وأعيد طبعه من طرف تيل غاليمار ١٩٧٧م). إنه بأحسن كفاية وبالبحث عن تحديد الجنس والفكر الروائيين، سعت مارت روبير (٢٤) فى طلب «النواة الأصلية» من دراسة إكلينيكية لفرويد نشرت ١٩٠٩م فى كتاب رانك عن ميلاد الأبطال: الرواية العائلية للعصابيين.

يتعلق الأمر بتلك الحكاية اللاصادقة، الكاذبة لكن العجيبة، التى يرويها كل إنسان لنفسه فى طفولته ويقوم على العموم بكتبتها (وهى تعود فى حالة العصاب). ففى هذه الحكاية، نجد الطفل المخلوع شيئاً فشيئاً عن مقامه الرفيع الحصرى فى الأسرة، الواقف أمام «هذا الخجل غير القابل للتفسير الناتج عن كونه مولوداً بشكل سيء ومنظف بشكل سيء» ومحبوب بشكل سيء، الباحث عن «وسيلة للتشكى والتأسى والانتقام» (ص ٤٦)، يتصنّع أنه لم يعد يعرف والديه، لم يعد يميزهما على أنهما والديه، ويبتكر له والدين آخرين. هكذا يتصور نفسه ابن أمير يبحث عنه أبوه: المرحلة الأولى هى مرحلة «الطفل اللقيط»، وسنفهم فيما بعد أن هذا يستلزم خطأ من الأم: المرحلة الثانية هى مرحلة «ابن الزنا». انطلاقاً من هذه القصة ومن الثنائية التى تشدد عليها، تستخرج مارت روبير نموذجين من أحلام اليقظة الطفولية، حلم الطفل العجيب الذى ينتظر دوماً أباه الملك، وحلم الطفل الواقعى الذى يستخدم الأخريات (النساء) قصد «بلوغ مرماه» شيئاً فشيئاً، إنه الأمير الصغير راسينيكا، وهذا ما قادها إلى ملاحظة سلسلتين كبيرتين فى العالم الروائى، حسبما يسلكه الوهم من طريقة العمل «كمالو» أو طريقة عرض ما

يبدو له كمالو (ص ٦٩): هكذا يقتسم «الجانب الآخر» و«شرائع الحياة» السرد
المفصل للاتجاهات، بالمقابلة بين سوفيت ودوفوي، وسرفانتس وستاندال، وبلزاك
وفلوبير.

كل هذا يدعنا إلى التأمل، ومع ذلك تستطيع دراسة الرواية الاغتراف من مصدر
فرويدى آخر: Das unheimlich (هذه العبارة التى لا تقبل الترجمة والتى
تترجم عادة بعبارة ينبغى أن نتكيف معها: الغرابة المقلقة
Etrange L'inqui'etaute)، وهو مؤلف ظهر سنة ١٩١٩م لوضع بعض الشروط
التي يخضع لها الأثر الفني الذي يسمى إجماعاً أو تقنياً بالفانتاستيك. وهكذا
«سيكون Unheimlich هو كل ما كان ينبغى أن يخفى لكنه يتمظهر» (نحيل إلى
«مقالات فى التحليل النفسى التطبيقي - ص ١٧٣): فهو هذا الشيء الذى يفاجئنا
مع أنه بإمكاننا أن نكتشف أنه جدّ معروف، هو ما يعود إلينا من الخارج مع أنه
يعتبر جزءاً من الداخل، وباختصار، فهو مكبوت يعود بطريقة فجائية داخل الحياة
اليومية كما داخل مشهد الفن. غير أن هناك اختلافاً ضرورياً بالنسبة إلينا: «هناك
أشياء كثيرة فى التخيل لا تبدو غريبة Unheimlich، لكنها تصير غريبة لو حدثت
فى الحياة (إننا نفكر فى الحكايات الخرافية)، ويملك التخيل بحق وسائل لإحداث
أثار غريبة لا توجد فى الحياة» (ص ٢٠٦). هكذا يدرس فرويد التخريفات
والأشباح والأشياء الجامدة التى تتحرك، كما درس حكاية هوفمان «إنسان الرمل»
(بخصوص الخفاء) ويستنتج بخصوص ثلاثة أمثلة جد واضحة: اليد المقطوعة
والمنطة لكنز رامبسنيت تصيبنا بالانزعاج، ويد حكاية هوف التى تحمل هذا
الاسم تحملنا فى شباك الفانتاستيك وهى تشعرنا برعب لذيذ، ويسلينا الطيف
الذى يظهره أوسكار وايلد فى - شبح كانترفيل - لأن المؤلف يتكلم عنه بأسلوب
الدعابة (ص ٢٥).

٥ - نماذج أخرى:

إن الأجناس سواء كانت كبيرة أو معروفة بقصورها، لا تعد المجال الوحيد الذى

يتدخل فيه التحليل النفسى بخصوص المظاهر الشكلية الأكثر أو الأقل تشفيراً لما نلقاه فى الفضاء الجمالى. منذ خمس عشرة سنة تقريباً أدرك المحللون المنشغلون بهذه الأسئلة بجدية ضرورة الشروع فى تحليل نفسى للشكل، ويمكن أن نعتبر التاريخ المعين لذلك هو لقاء سيريزى لسنة ١٩٦٢م (الذى نشرت أعماله: محادثات حول الفن والتحليل النفسى، عند موتون سنة ١٩٦٨م)، وخاصة بفضل نيكولا أبرهام (ص ٤٠) وجانين شاسكز - سميرغل (٢٦)، ولقاء حديث جداً، فى نفس المكان (سيريزى، يونيو ١٩٧٧م) مخصص لـ التحليل النفسى للنصوص الأدبية» يأتى ليضع هذا الاهتمام فى المقام الأول - وأعماله ستسمح فى الأيام المقبلة بالحكم عليه. وسنرى فى الفصول القادمة كيف انتقل البحث شيئاً فشيئاً من الإنسان نحو الآثار ومن المحتوى نحو التعبير، أو بالضبط من الكاتب نحو النصوص المستقلة بذاتها ومن التعارض شكل / عمق نحو «الكتابة» التى لا تفصل بينهما أبداً حالياً، ودائماً على المستوى العام الذى سميناه عبر - أدبيا، نستطيع الإشارة إلى بعض الأبحاث المنهجية والحريصة على المنهج التى تطرح بوضوح مشكل استخدام الشكل.

وهذا مثال حديث جداً، قد يشقّ طريقاً: إنه مقال هنرى لافون الذى يحمل عنوان «أن ترى دون أن تُرى»، فى مجلة «شعرية»، عدد ٢٩. يتعلق الأمر «بأن نقيم بين الحكى الأدبى وما يُحكى للمحلّل، تقارياً لا يمر لا عبر البيوغرافيا ولا عبر أثرها» مع التساؤل ما «إذا كان (لم يكن) الاستيهام أيضاً نوعاً من الكليشيه الفردى». ومن بين الروايات المنشورة بين ١٧٢٠ و ١٧٨٠، يلتقط هـ. لافون إلحاح نواة راسخة: فى كلّ مرة ممثلان على الأقل، ونظر لا يكون متبادلاً، عنصر خارجى جاهد يتدخل «بين المتلصص والعرض الحميمى. وتختفى هذه النواة بحسب وجود ملاحظة (مُلاحَظ) أو ملاحظ وزوجان (علاقة رغبة - علاقة معرفة)، وانطباع سارّ أو حزين. ولأن المسند صحيح، فلذلك يلفت هذا النموذج الانتباه لأنه لا يمكننا أن نقرّر مسبقاً ما إذا كان الأمر يتعلق أولاً بوظيفة الإخبار أو فقط بخدعة تقنية (ترتبط بموضة)، فالكليشيه يمكن إعادة استعماله إلى ما لا نهاية، ومحتواه وإن كان يبدو

فقيراً فهو لا يخلو من أهمية ودإلحاحه البسيط هو إلحاح الغريزة» (ص ٦٠): إنه فى علاقة بالاستيهام الأصلى للمشهد البدائى. وهنا توجد بداية مثيرة. إن أبحاثا معاصرة، وخاصة من جانب «شعرية المحكى»، ترتكز إلى توسيع بلاغة سرديّة، وتفترض وجود عمل نوعى فى العمليات اللاواعية ويمكنها أن تتمدد فى اتجاه المراجعة الثانويّة.

من جهة أخرى ويقصد آخر، من الضرورى الاستناد إلى أعمال منظرين (٣٧) سبق أن ذكرنا اسميهما هنا وهناك، لأن تفكيرهما، وهما الفيلسوفان بالمعنى الأكثر معاصرة للكلمة، يتشكّل داخل تمرّس بالنصوص: جان فرانسوا ليوطار (٣٨) وجاك دريدا (٣٩). إنهما يعملان على هامش التحليل النفسى، لكن داخل هوامش النص الفرويدى والخطاب الأدبى. وبما أنه ليس من الممكن تلخيص تحليلاتهما فى إطار ضيق جداً، فإننا نحيل القارئ إليها.

إن كتاب «الخطاب، الصورة» الذى يعود إلى سنة ١٩٧١م يبرز الظواهر الواضحة بالرغم من أنها (أو لأنها) هامشية مثل الألغاز، الأحجيات المشهورة والتشويّهات التصويرية - حيث يدرك بشكل حسّاس ما يسميه ليوطار «الصوريّ Le figural»، إنه يدرس مقالين جوهريين عند فرويد، «الإنكار» و«لقد ضرب طفل». خاصة وأنه، فى مائة صفحة كثيفة وقوية، يستكشف فى كل أبعادها صيغة من كتاب «تفسير الأحلام»، إن عمل الحلم لا يفكر» (ص ٢٣٩ - ٢٧٠) ويستكشف العملية الشعرية بما هى تكثف «الرغبة داخل الخطاب» (ص ٢٨١ - ٣٢٤ و ٣٥٥ - ٣٦٠). إننا مازلنا بعيدين عن قياس حمولة هذا الكتاب، الذى يبدو أن مؤلفه قد غير مجراه، وقام على الوجه المناسب بتمديد التصورات التى فتحتها.

أما عن ج. دريدا - الذى تتلاحق أبحاثه - فلن نقول إلا ما يلى: يبدو لنا صعبا الاشتغال اليوم قليلا فى العمق على تمفّصل «الأدبى» و«النفسانى» دون الاطلاع على «فرويد ومشهد الكتابة» (فى كتابه: «الكتابة والاختلاف»، ص ٢٩٣ - ٣٦٠). وبخصوص القراءات التى أنجزها عن بعض النصوص، سواء تعلق الأمر بأفلاطون أو مالا رميه أو يونج أو لاكان باعتباره قارئاً لـ «الرسالة المسروقة» لصاحبها (٣٠)، فبالرغم من أنها تلجأ إلى لغة زائحة وبالضبط لأنها تتميز بالنسبة إلى الإشكالية

وعادات التحليل، فهي نموذجية من زاوية ما بثمين لعبة الدول اللسانية وإنتاج
دلالة أقرب إلى تنظيم الكلمات مما يَبْرُزُ، وما يهمنا هو أثر الآخر داخل الكتابة.

هوامش الفصل الرابع:

(١) من هذه التصريحات التي تتخذ شكل النفي، يعرف التحليل النفسي، لتتذكر ذلك، نوعين أساسيين: الإنكار عند العصابي («أنا متأكد من شيء واحد، هو أن سيدة حلمي ليست هي «أمي»، وهذه حركة شفافة)، والرفض (رفض الواقع) (اعرف جيداً أنه ليس للنساء عضو جنسي ذكوري، لكنني رأيته عند أمي: ومن هنا صياغتان: الذهاني يهلوسُ بالشئ الناقص والفتيشي (المنحرف) يؤكد اعتقاده وينكر تجربته صانعاً، مُحَنَظاً بدلاً هو ما يعبدُ بشكل من الأشكال). ولهذا سنقول: إن الفكر التاريخاني المهوس بالجمعي socius في صيرورته، يحاول أن يضع بين قوسين التكيف الفردي الجوهرى للنفسية الذي ينفلت من كل صيرورة، أما بالنسبة إلى النقد الأنبي التقليدي فهو يرفض في الوقت نفسه ما يحسه ك «بذاءة» الجنسي، كانهراف «إبداع» خاضع في جزء منه لامبراطورية الوعي وكإدراج للمعنى الكوني المسبق الذي تريد الإنسانية اكتشافه.

(٢) نحيل إلى مارينا سريابين، المجلة الجديدة للتحليل النفسي - ١٩٧٧، تحت عنوان:

Au carrefour de th'ebes, NRF, 1977 .

(٣) المرحلة التي تمتد تقريباً من السنة الخامسة إلى مرحلة الاحتلام، حيث يبدو أن الأدمى الشاب، المنقل بتعلم الواقع الاجتماعي، يفقد الجزء الأكبر من اهتمامه بأشياء الجنس.

(٤) هكذا صيغ المشكل من طرف ديدى أنزيو في مقال يحمل عنوان: «فرويد والميثولوجيا» بالمجلة الجديدة للتحليل النفسي (١٩٧٠، العدد ١)، وهو ينسب إحدى الفرضيات الأكثر خصوصية حول سؤال الخرافة: توجد العمليات اللاوعية - ممثلات - تمثيلات الغريزة، وميكانيكا الدفاع، والخوف والاستيهامات - في عدد محدود، إنها هي نفسها دوماً وفي كل مكان: وبهذا المعنى يمكن الحديث عن كونية اللاوعي وبالعكس، فتتنظيم هذه العمليات وتركيبها يكونان متغيرين، فهي تتغير ليس فقط عند الفرد حسب مراحل النمو الليبيدي وحسب عصاباته لكنها تتغير أيضاً تبعاً للجماعات والمجتمعات (...). فالتنظيم الفردي والتنظيم الجماعي للعمليات اللاوعية هما تنظيمان مستقلا الأصل والاشتغال. طبعاً الاستيهامات الفردية والاستيهامات الجماعية تتواصل فيما بينها، لأنها تتركب من نفس العناصر التأسيسية. لكن نادراً ما يطابق تنظيم لوائح فردى تنظيم لوائح جماعية (...). إن نفس الإنسان تجده يتصرف في حياته الخاصة حسب استيهاماته الخاصة، ويتصرف في الجماعة حسب استيهامات الجماعة كلما ارتفع عدد الأفراد الذين يقتسمونها، إلا وكانت هذه الاستيهامات وازنة، يعنى ثابتة في الزمان (...). إن حضارة معينة تعيش ألف عام على نفس الاستيهامات. إن هذه الأخيرة هي التي تخضع لما نسميه التقاليد (ص ١٤٢). ولتقدم أيضاً ما يلي عن الرمز: إن الرمزية هي استيهامات الجسد (...) فالأطفال يحصلون، عن طريق التجسيد الرمزي: على لغة قبلية هي كونية لأن دوالها ترتبط بأجزاء من الجسد (من جسد الطفل ومن جسد الأم) (ص ١٢٣). (في الطبعة الرابعة

١٩٩٣ لهذا الكتاب يضيف ج. بيلمان - نوبل: وحديثاً جداً، حدد أ. غرين الخرافة كـ «موضوع» انتقالي جماعي، نحيل إلى: Le temps de la reflexion, 1980 ed gallimard, 1999, 132

(٥) إن معيار الخطاب الخرافي، الذي يميزه عن الإنجازات الأدبية الخالصة، هو بالنسبة إلى ليقي ستروس «قابليته للترجمة»: إن هذه الحكايات لاتمثل، ماعدا بالصدفة الدوال اللسانية، ويمكنها إذن دون ضرر دخول لغة مجاورة، خلافا للنص الشعري وربما أن هذا التمييز جزئي بعض الشيء، فهو يواجه استثناءات بارزة (من مثل: Hesiod, Ovide, les Niebelungen I: Edda Scan dinave etc) فوق ذلك، فنحن نقرأ كخرافات وملاحم الحكايات المؤلفة، بالسانسكريتية على سبيل التمثيل، التي تتمسك بأصول الرواية والفلسفة.

(٦) يعني ذلك الوقت من الحياة حيث يفترض في الذات، وهي لها في نفس الوقت والدين وأولاد (على الأقل فرضياً) توجيه الفرق بين الأجيال والفرق بين الذكر والأنثى في نفس الوقت.

(٧) «لقد سمحت خرافة إغريقية لفرويد بمفهمة التنظيم النفسى الذى هو فى نفس الوقت نواة النضج الانفعالى ونواة العُصاب ونواة الثقافة» (نحيل إلى د. أنزيو - سبق ذكره - ص ١١٤).

(٨) بفضل، فى هذا المؤلف، نرى فرويد يتخيل خرافة - خرافة أبناء العشيرة البدائية الذين قتلوا « يوماً ما » الأب وأكلوه، ثم عادوا لتنظيم جماعتهم تحت تأثير الجرم بمنع امتلاك زوجات الأب ويرصد شعائر تذكارية للميت الذى اتخذ طابعاً بطولياً (الوليمة، الطوطمية، وطقوس أخرى) (نحيل إلى: مؤلف فرويد: الطوطم والتابو - من ص ١٦٣ إلى نهاية الكتاب، هناك فرضيات حول بعض عناصر الميثولوجيا).

(٩) إن بيلا غرانيرجر (فى كتابه «النرجسية» بايوط ١٩٧١) يحدد البطل على أنه «هذا الذى لايريد أن يكون مديناً لأحد بحياته» والذى ولد خارج الظروف العادية ويعثر على أمانة ندائه الباطنى فى هذه المصيبة التى عليه أن يعوضها أو أن يتحرر منها ».

(١٠) نحيل إلى: روجيه دادون: «جيزا روحيم»، بايوط، ١٩٧٢م.

(١١) جان بيلمان - نوبل : - « الحكايات واستيهاماتها، سلسلة الكتابة، منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٨٣، ودراسة «إهاب حمار» الموجودة فى كتابه (ما بين السطور) ١٩٨٨.

(١٢) نحيل بالخصوص إلى مقالة سابقة على التى تقدمت أعلاه « أوديب قبل المركب » فى الأزمنة الحديثة - عدد ٢٤٥ . أكتوبر ١٩٦٦، وفيها نجد ملاحظات جريئة (منها الفرضية: الطفس يماثل الجنسية الطفلية (...)، أما الخرافة فهى تستحضر إعادة تنشيط الصراعات الطفلية فى المراهقة)، وهذه المقالة ظهرت مرة أخرى فى: التحليل النفسى والثقافة الإغريقية والآداب الجميلة ١٩٨٠م).

(١٣) يهنا هنا كتابه « التراجيديا والشعر، فلاماريون، ١٩٧٥م، وخصوصاً الفصل الذى يحمل هذا العنوان: «الفن والميثولوجيا» (وفيه يعتبر «الجمال» وسيلة تستعملها الأنا اللاواعية لكى تستأجر الأنا الأعلى).

(١٤) نحيل إلى «قصة وتجربة الأنا»، قلاماريون ١٩٧٩م، وبالخصوص الحصيلة عن السحر من خلال ساحرة ميشلى

(١٥) نحيل إلى «الثورة ضد الأب» بايوط ١٩٦٨ الذى يقدم قراءة أصلية لـ «حواء المستقبل» لثيلى دولسل - آدم. ونحيل أيضا مقال «التحليل النفسى والأدب الهامشى» فى «محاورات حول الأدب الهامشى» (لقاء سيريزى ١٩٨٧م) دار بلون ١٩٧٠، وهو يحمل عنوانا فرعيا واضحا: «من الأدب الهامشى الذى يُعتبر شكل النفاذ المباشر من الاستيهام إلى اللغة».

(١٦) الطبعة الفرنسية، غاليمار ١٩٦٧م، مقدمة لافتة للنظر لجان ستروبنسكى (التي أعيد نشرها فى «العلاقة النقدية» غاليمار ١٩٧٠م). وهناك دراسات أخرى لجونس حول الفولكلور والدين نُشرت بدار بايوط (نحيل إلى: كلود جيرار فى - إرنست جونس - بايوط ١٩٧٢).

(١٧) نحيل إلى «دون چوان، دراسة عن القرنين»، الطبعة الفرنسية دونويل وستايل ١٩٣٢م.

(١٨) نحيل مثلا إلى حلم فرويد نفسه الذى تتدخل فيه ثلاث نساء، الغزالات (فى مؤلفه: «تفسير الأحلام»، ص ١٨١ - ١٨٤)، وهو الحلم الذى درسه د. أنزيو فى «التحليل - الذاتى لفرويد»، منشورات فرنسا الجامعية (١٩٥٩) وأعيد طبعه ١٩٧٥م، مج ٢، ص ٤٧٣.

(١٩) منشور فى ألمانيا سنة ١٩٢٤م ومترجم إلى الفرنسية سنة ١٩٦٣م.

(٢٠) وهو التفسير الذى لاداعى للإشارة إلى صعوبته. ونجد بعض بداياته فى عدد من مجلة - L'ARC - المخصّص لجاستون باشلار (١٩٧٠)، وبخاصة دراسة جلبير لاسكولت وبالخصوص دراسة ج. ف ليوطار.

(٢١) فى كتابه: «ثورة جاستون باشلار فى النقد الأدبى» كلانسيك، ١٩٧٠، ص ٢٧٠.

(٢٢) إذا قمصنا بطلا تراجيدياً، فإننا نسقط (أسوأ الأشياء) على الشخصية الكوميديّة (مثال المتوّار، ص ١٧٣).

(٢٣) وحين وقت الإشارة إلى كتاب سيرج تيسيرون - التحليل النفسى للرسوم المتحركة، سلسلة «أصوات جديدة فى التحليل النفسى»، منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٨٧م.

(٢٤) ندين لمّارت رويير بأعمال نقدية (خصوصا فى المجالين الألمانى والأسبانى) ولكن أيضا بمؤلفها التركيبى «ثورة التحليل النفسى» حياة وأعمال سجموند فرويد، «بايوط ١٩٦٤، فى مجلدين، (أعيد طبعه ١٩٧٠)، الذى تسمو خصوبته ودقته فوق مشروع التعميم، مع بقائه على وضوح شامل.

(٢٥) من الواضح أن هذا المسار القصير له قيمة بالنسبة إلى عرضنا: فهو لا يسعى إلى استنفاد خصوصية نص ذى أهمية خاصة، كان مكتوبا ليلة التنظير لـ «غريزة الموت» المثلث بالتناج بالنسبة إلى التيار. وعن «الغربة المقلقة» يمكن أن نقرأ هيلين سيكسون:

«واشباحه» مجلة «شعرية»، عدد ١٠، ١٩٧٢، وخصوصا سارة كوفمان «القرين و (هو) الشيطان » فى كتابها: « أربع روايات تحليلية » غاليلى، ١٩٧٣م.

(٢٦) لقد بدأ نيكولا أبراهام تفكيراً تحليلياً حول « قوانين الإيقاع » (فى الشعر) ودفع مؤلفه الأخير « Cryptonymie le Verbiu de L' homme auxloys » بتعاون مع ماريا تاروك، تقديم چاك دريدا - أوبيى، فلانماريون ١٩٧٦) إلى أقصى حد دراسات آثار الدال فى حالة نموذجية للأوعى متعدد اللغات. أما بالنسبة لج. شاسكى سمير جل، التى اتخذت كموضوع فيلماً لـ. روب غرييه « السنة الماضية فى مريانباد » فإنها جمعت محاولات (المتراجعة أحياناً بالنسبة إلى برنامجها) فى كتاب مفيد: من أجل تحليل نفسى للإبداعية « بابوط ١٩٧١، وأعيد طبعه سنة ١٩٧٧م. وخارج المجال الأدبى بحصر المعنى، نحيل إلى أعمال محلل بولاء كلينى أو نطوان إر نزيغ (النظام الخفى للفن).

(٢٧) لنستحضر على سبيل الاحتياط اسمين آخرين: اسم چاك ميشال - رى الذى شرع فى مسالة النص الفرويدى من خلال لغة جديدة (انظر. مسار فرويد، غاليلى ١٩٧٤. و. من الكلمات إلى الأثر - أو بين مونتنى ١٩٧٨) واسم باتريك لاكوست - إنه يكتب - غاليلى ١٩٨١م.

(٢٨) نحيل إلى: الخطاب، الصورة - كلانسيك، ١٩٧١م.

(٢٩) نحيل إلى: الكتابة والاختلاف، سوى ١٩٨٧ (ص ٣٦٠ - ٢٩٣)، و « La Carte postale » أوبيى - فلا ماريون، ١٩٨٠ كما التقديم الملانم للإشكالية الدريدية فيما يهمناء، فى «فيلسوف غريب مقلق » لسارة كوفمان، ضمن كتاب - انزيحات، أربع محاولات بخصوص ج. دريدا، فايار ١٩٧٣ ص ١٤٩ - ٢٠٤).

(٣٠) نحيل إلى: الانتشار، سوى ١٩٧٢ الموقع من طوف يونج فى - فرانسيس يونج، لقاء سيريزى، ١٩٧٥، « ١٠ - ١٨ »، ١٩٧٧ وفى «دياغراف» عدد ٨، ماي ١٩٧٦، كما « عامل الحقيقة » السابق الذكر.

الفصل الخامس

قراءة الكاتب الإنسان

«إن الأمر لا يمكن أن يكون إلا واحداً من اثنين:
إما أن تفسيرنا كاريكاتورى بكل ما فى الكلمة
من معنى إذ عزونا إلى عمل فنى برىء مقاصد
ما دارت حتى فى خلد مؤلفه - وبهذا نكون قد
بيننا مرة أخرى كم هو سهل أن يجد المرء ما
يبحث عنه وما هو مقتنع به بينه وبين نفسه
(... وإما أن) الروائى يمكن أن يجهل تماماً تلك
العمليات وتلك المقاصد، وأن ينفى بالتالى عن
حسن نية أن تكون له بها معرفة، ومع ذلك لا
نجد فى عمله شيئاً لا يتقيد بها. ولا شك أننا
نمتح من معين واحد، ونجبل من طينة واحدة،
كل بمناهجه الخاصة».

(س. فرويد: الهذيان والأحلام فى غراديغا ينسن، ٢١١ - ٢٤٢).

هناك الكتاب، وهناك المؤلفات، ومن الآن فصاعداً سيكون موضوعنا على أحسن
تحديد، وفى مقابل ذلك، سيكون من الواجب تمييز زوايا المقارنة. فعلى طول
الخمسين سنة التى تلت نشر الأعمال النظرية الكبرى لفرويد، لم يكن هناك إلا
محلّون لدراسة الأدب، وقد قاموا بذلك وهم يصبون اهتمامهم على المؤلف، ومنذ
خمس عشرة سنة، إذن، سيحاول نقّاد أدبيون متمرسون بالتحليل (عصاميون،
ويخضعون أحياناً للتحليل) تثمين القيم اللاشعورية التى يستخدمها الخطاب
الأدبى.

لا يزال هذا التمييز المضاعف غير كاف. فوسط أولئك الذين استهدفوا ويستهدفون المؤلف دائما نكتشف بأن الاهتمام قد تحول من الفرد (لنقل: العبقري بعصابه) نحو الكاتب، وبهذا يتعايش موقفان: إما أن نأخذ بعين الاعتبار مجموع الإنتاج المعروف لبدع ما كما الشهادات الخارجية عن حياته كى نضع له بيوغرافيا نسقية، وإما أن نختار ألا ندرس إلا الكتابات الأدبية من أجل إخراج الفرادة الخفية لأثر ما بإسنادها إلى المبدأ الذى أسسه المؤلف. من ناحية أخرى، يتقدم القراء متشوقين إلى « الإنصات » للكتابات نفسها دون اعتبار على الإطلاق لكونها تنتمى إلى مجرى مياه ما، ولكن هناك أيضا يمكن من جهة أن نضع جانباً الموقف الذى يركز على فك ستن المعنى الرمزي لمؤلف ما، ومن جهة أخرى الموقف الذى ينقطع لملاحظة عمل اللاشعور داخل النص. هاهى إذن العنونة، قبل أن نأتى على تنقية هذا التقديم: الباتوغرافيا، النقد النفسى البيوغرافى، النقد النفسى، التحليلات النفسية النصية التى تتخذ لها موضوعاً واقع نص أو تحقيق الإخراج النصى. ومن البديهي أن هذا الرسم البياني يستجيب قبل كل شىء لرغبة ما فى الوضوح داخل هذا العرض، لأن أغلب الدراسات تتركب اتجاهين أو أكثر وتفضى داخل مسالكها المتتوية إلى خلاصات ستجد مكانها فى موضع آخر.

(١) أَنْ تُدْرَجَ فِى مَا (مَنْ) تَقْرَأُ:

ينجم عن كل ما قلناه فى الفصول السابقة أن القراءة بالتحليل النفسى لا تقارن بالأنماط الأخرى من القراءة. فهى تفترض التزاماً شخصياً. وليس فقط كفاءة فى النظرية الفرويدية كما توجد كفاءات فى التاريخ القديم أو فى اللغة، مثلاً، بل تركيز نفسى لاشعورى. يوجد فى كل منهج قسط من التعبئة الانفعالية: هنا تبلغ شدتها نهايتها. إن التشوهات المنسوبة إلى القارئ تبدو خطيرة بسبب المقاومات أو التحمّسات: يمكن أن يبرز إلى الوجود تحويل - مضاد(١)، فصيح التسوية تحمل فى داخلها ما يثير تفاعلاً مسلسلأ أو ما به يبنى جدار حقيقى من العمى.

نعرف أن المحللين ليسوا كما هم إلا لأنهم قاموا بتحليلهم الخاص (المسمى أحياناً «تعليمياً») لأجل الحفاظ على اتصال بقدر من الحرية مع لاشعورهم وتوجيه

ردود أفعالهم تجاه تحويل المريض. وفضلا عن ذلك، فالتحليل الديداكتيكى لا يوضع حدا، عندما ينتهى، لحالة الملاحظة - الذاتية الشديدة: إنها تتطور إلى تحليل - ذاتى يكون تقريبياً دائماً (ويفحص دورياً أمام زميل) وهذا الأخير لا يحصل على مكانته الجيدة فى الممارسة إلا بصياغة مستمرة للتيار. فالحمل السريرى يكمل من خلال إعادة التوازن وإعادة النظر فى المفاهيم المعروفة - إن كل محلل يكون فى الوقت نفسه متمرساً ومنظراً - من هنا فالشرط الشرعى الذى تمت صياغته من طرف بعض المحللين النفسيين بخصوص كل من يريد استعمال الأدوات الفرويدية عن خبرة: ينبغى أن يكون محللاً - وفى الواقع ألا يكفى أن يكون محللاً؟ - من جهة لكى يمتلك «إصغاء طافيا» لا يعرقل قدر الإمكان (٢) لأجل أن يكون من جهة أخرى، فى مستوى التدخل وإعداد مفاهيم يأتى اكتسابها الحقيقى من صوغها النظرى، وهذا الصوغ النظرى يأتى من ممارسة (٣).

مما لا شك فيه أن المثل الأعلى سيتحقق بوجود محللين نفسيين متمرسين بكل مقتضيات القراءة الأدبية ونقاد يكون لهم متسع من الوقت للقيام بتحليل. وينبغى أن يكون الواحد منا واقعياً ويقبل أنه عادة لن يلقى إلا شعوراً مزدوجاً بالنقص. فوق ذلك وللذكرى لا وسيلة للقطع بالحقيقة. نحن نعرف حلقة من «اعترافات» روسو حيث يحكى أنه عرض بتباه فى حدائق توران أمام المتنزهات الجميلات لا «الشيء المخل بالحياة» بل الشيء المثير للسخرية. يؤكد روزولاطو وهو يقرأ هذا المقطع كمحلل (٤)، أن جان - جاك يعرض «الأول برغم إنكاره» وأنه قد كذب علينا، والحجة: وهو عائد إلى سافوا، ربح بعض المال فى طريقه «بعرضه فى تباه إله مائية تفتنه، ينبوع بلشون، ذلك الجهاز الرشاش العجيب، ودون أن نعتبر أنه سبق أن سفع ماء من إبريق طافح على كسوة الأنسة بريل وهو يخدمها على المائدة» (٥) أما بيير بول كليمون، فى دراسته النفسية البيوغرافية الحديثة (٦)، فهو يثق بالكاتب: إنها أردافه بعينها هى التى كان يعرضها بتباه، المكان المفضل عند رغبته، والحجة الردفات التى لاتنسى والتى تلقاها من طرف الأنسة لامبرسى لاجل الضحك، من طرف الشابة الأنسة كوطن... وإذن: أهو الأمام أم الخلف؟ أهو كذب

أم اعتراف صريح؟ كيف نقرر؟ من يستطيع القول إن المحلل أصدق من الناقد، لاسيما وأن كل واحد لا يتجاهل الحجج التي يستند إليها الآخر؟ إن الامثلة الملموسة لا تسمح إلا بإجابة من نورمان، مجهزة لحالات من هذا النوع. وكل قارئ سيختار تبعاً إما لما ينال إعجابه أكثر (وكيف نلومه على ذلك؟)، وإما تبعاً لما يلائم بدقة أكثر ممارسته العادية (المقصود ممارسة القراءة)، وإما تبعاً لما يندمج أكثر من المسار الذي تنجزه قراءته الراهنة، بتقطيعه الخاص. وماذا أيضاً؟

إن معطيات الجواب التي تسمح بمنح بعض الأهمية لعمل اللا - محلل (المفترض فيه مع ذلك ألا يكون جاهلاً بمادة التحليل النفسي)، يبدو وأنها مقروعة قبلاً بسهولة في التمييز المذكور أعلاه، الإنسان الكاتب أو النصوص. فروزا لا يطو يسير بكل سهوله نحو فرضية الإنكار، لأن ممارسته تجعله يواجه كل يوم مثل هذه الأفعال ولأنه، وهو الأكثر ثقة بحجته حتى لا نقول بأستاذيته، أقل تردداً من الناقد في النظر إلى النص على أنه إنكارى: إذا كان غالب الأحيان واضحاً أن المحلل وقت المعالجة ينكر (لقد فضح قبلاً نفسه، وسيفضح نفسه)، فلا بد من الجراءة للإقرار بأن ملفوظاً نصياً ينبغي أن يؤخذ من الخلف لأن الفحص (اللائق) يقع بكامله على عاتق القارئ، انطلاقاً من مجموعة محددة من الملفوظات. فضلاً عن ذلك ، فالمحلل متعود على « معالجة » الناس، الذين لا يمكن اختزالهم إلى خطابات إلا بطريق القياس والذين، على أى حال، لا يمكنهم أن ينتجوا بلا نهاية خطابات أخرى، إنه يعالج مباشرة المقاومات التي تسير في اتجاهه أو التي تؤثر فيه، إنه يؤثر على الاثنين، في عزلة عيادته. أما الناقد فهو لاعلاقة له بالكائنات الحية، الدنيوية وغير المتوقعة، بل بخطابات معروفة، لا تتغير، إنه يقوم وحده بكل عمل المحلل مقدماً للنص الأسئلة والأجوبة التي ستعود إليه، بينما يشتغل فضلاً عن ذلك على ثلاثة: الأصل اللاشعورى للنص، آثار لاشعور الناقد، والحضور الدائم لقارئه هو، الناقد. وهذا جوهرى بين الكتاب، والطاولة والدراسة التحليلية التي تكتب، لوجود لسر كما بين الأريكة والكرسى. إن الناقد المولع بالتحليل النفسى للنصوص يشتغل على رأى ومسمع من الجميع، وينشر عمله مع النص، وكل

واحد يمكنه أن يبدى رأيه فيه. إنه يركب مخاطر، لا تقاس طبعا بمخاطر المحلل بما أن الأمر لا يتعلق بمصير كائن إنسانى، بل إن الأمر يتعلق بصراحة بجودة إنجازه النقدى، ومن ثم بتقدير كفاءته. لهذا يجد نفسه خاضعا باستمرار لمراقبة تحته على أن يتفحص « بجد »، كما « بهدوء » قدر الإمكان، جرد التفسيرات التى يقدم على إخضاعها لمراقبة الآخرين، النقاد والمحللين.

(٢) التحليل النفسى للمؤلف: الأسلاف الكبار:

لا يتعلق الأمر هنا بأن نفرض بسرعة نزاعا مجانيا ولا طارئا. إن موقف المحلل إزاء الفعل الأدبى قلما تكون له نقاط مشتركة مع الموقف الطبى العلاجى، ولو أن غزارة الأدب التحليلى المكرس لدراسة الفنانين قد تخذعنا لبعض الوقت.

لن نتوقف إطلاقا عند إسهامات فرويد. إلا أن إسهامه الذى يخص ذكرى من الطفولة فى عمل جوته Dichtung and Wahrheit (١٩١٧ م) يستحق وقفة: نتساءل لأية غاية ظهر مع مقالات فى التحليل النفسى التطبيقى - (جَمْعُهَا معزوف إلى مارى بونبارت) . إن لم يكن بسبب اسم جوته الذى له اعتباره، فالأمر يتعلق بأكبر كاتب فى اللغة الألمانية، لكن يمكنه أيضا أن يكون جاراً من نفس الطابق. لقد أكتب فرويد على ذكرى للشاعر تعود إلى السنوات الأربع الأولى من حياته (حين رعى الأوانى العائلية من النافذة - لكى يحتج بلا علم منه على ميلاد مزعج لأخ أصغر) من منظور الذكرى - الشاشة (٧)، بمقارنتها بنصف دزينة من شهادات مماثلة لمرضاه. أما الإسهام الذى يحمل عنوان « ذكرى من طفولة ليوناردى فانشى » (١٩١٠ م) فيبدو أنه ليس ملائما على الإطلاق، مادام الأمر يتعلق برسّام هو مهندس فى نفس الوقت، ومن جهة أخرى، فهو يتضمن بداية التنظيم للفرائز انطلاقا من رغبة المعرفة المتجذرة فى الفضول الجنسى، الأمر الذى يبرر أهميته فى نظر المحللين. لكن هناك فى نظرنا ما به يشق الطريق إلى أسوأ الخلافات وفى نفس الوقت إلى عمل إيجابى تماما.

خلافات: إن فرويد لا يقيم فقط بناءه الخطر على عناصر مستعارة (فصورة

العُقاب في كسوة القديسة أن تنتسب إلى فستر) وملكه بالمخاطر (إن العُقاب في النص الإيطالي هو «nibbio» الباز، الأمر الذي يلغى أى تقريب من الأساطير المصرية)، بل إنه يستند إلى الملابس التي اشتراها فانشى لمساعدته الشباب وإلى الوجه الخنثوى للقديس جان لأجل وضع تشخيص للجنسية المثلية (الأفلاطونية السلبية) يعززه تعلق محتمل بالأم... أما الإجراء الأكثر إيجابية فهو الذي يركز على تحليل « تبسمات ليونار دو فانشى » بالاستناد إلى موناليزا La Monalisa كاكشف متأخر لتشكل استيهامى فيه يتمثل حضور الأم الغائبة وينكشف نوع من الإغراء الذي لا ينتمى لا إلى الأم ولا إلى النموذج، والذي صار ممكناً لأن «كل إدراك حسى يكون من قبل موظفاً من طرف الرغبة (٨)، وإذا كان التبسم الأول محيراً بعض الشيء، فلأن هناك عودة مكبوت ما أن يُرفع المكبوت (ويرفع مرة واحدة)، حتى تتكشف التبسمات الأخرى، كما لاحظ فرويد، « أكثر رقة وهدوءاً ».

(س. فرويد - ذكرى من طفولة ل. دى فانشى - ١٠٦). وهنا نجد فى بذرة ما يعادل قراءة نقدية - نفسية من خلال التراكم.

من بين أتباع فرويد، يوجد اثنان قاما بتوضيح ما يمكن تسميته الدراسة « ذات الطابع الطبى » للكاتب. الأول قام بها بكيفية جذرية، ومن ثم هامشياً بالنسبة إلى أهداف الدراسات الأدبية: إن رونه لافورج قد اهتم بـ « حالة » شاعر فى كتاب يحمل عنواناً معبراً - فشل بودليير - (دونويل وستيل، ١٩٣١م). إن الآثار والوثائق تصلح هنا لإجراء وصف كلينيكى لعصاب الفشل: إن مؤلف أزهار الشر لم يُعالج، هو الآخر، بخلاف ما عُولج به جَارْك فى الطابق.

لقد كان الكتاب، الأكثر خصوبة والبعيد فى كثير من وجهات نظره عن الطموح الباثولوجى، الذى كرسته مارى بونابرت لإدغاريو (إدغاريو: حياته وآثاره، دونويل وستيل ١٩٣٣، منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٥٨م)، من روائع النقد النفسانى الأكثر تمثيلاً لمقاصد ولغة فرويد وأتباعه المباشرين. إنه الأثر الذى يستحق الزيارة، والذى سيكون مستحياً أن نزيل عنه الغبار.

إن النقد النفسى البيوغرافى والنقد النفسى يجدان فيه ما يحققان به الإشباع سواء بسبب الأهداف أو بالوسائل المستخدمة - إن الأم التى اختفت مبكراً، منقولة فى دورات الحية - الميتة، منظر (البحر والحليب والجليد)، المرأة المقتولة، العجز الجيسى الذى حول إلى حافز متواتر للبتر أو إلى حافز المدفون الحى إلخ - إلا أن نقداً أكثر راهنية سيكتشف فيه ذلك الاهتمام بتصفح آثار العمليات الأولية بشكل نسقى وبإبراز الأشكال الملائمة (كما فى الحكاية الفانتاستيكية) . وينبغى أن نقول بطريقة تقديرية إن نبوغ المحلل قد تجاوز بشكل واسع ما يريد أو ما يفكر القيام به .

(٣) «النقاد النفسيون - البيوغرافيون»:

إن النبوغ هو ما يمكن الحديث عنه عندما نستحضر الأسماء الأربعة الكبيرة (فى نظرنا) فى النقد النفسى البيوغرافى: دولاي، ولابلانش، ومورى فرنانديز. اثنان منهم طبيبان ممارسان، واثنان أديبان، لكن بنفس القدر من التعديلات الفريدة. فجان دولاي يعمد (٩) إلى النظرية النفسانية للعصابات قصد تحليل إبداع نجح فى أن يكون حلاً للصراعات اللاشعورية، وميكانيكية فعالة للدفاع:

« إن أثراً كأثر أندري جيد، وبالضبط لأنه لم يصنع إلا من الصعوبات الشخصية لمؤلفه يحقق تطهيراً حقيقياً . فقد حصل داخل شخوصه وعن طريقهم على توضيح لكل ميولاته، ونقل حالات شعوره وتحويلاته (الإيجابية والسلبية) إلى قرائنه، وأنجز فى النهاية تحليلاً - ذاتياً حقيقياً » .

(المجلد ٢، ص ٦٤٦) .

إن الباثولوجية لم تعد تفضى إلى الفشل، بل إنها تسمح بالازدهار الفنى، ويصبح الأثر الفنى « صحة اصطناعية » ونتبين فى ذلك ما إذا كانت مراحل النشاط الأدبى، بعد وصف السياق العائلى والوضع الطفلى، توضع جنباً إلى جنب أحداث البيوغرافيا والتطور النفسى الواعى - الذى فى حالة جيد، نعرفه كفاية. ونحصل بهذا الشكل على صورة للمؤلف أكثر كما لا يمكن لسانت بوف أن يحلم بها وعلى كشف بما تمثله مؤلفاته بالنسبة إليه .

أما جان لابلانش (١٠) فهو يهتم مع هولدرلين بظاهرة دقيقة مغايرة لظاهرة عصاب محلول: لقد قضى الشاعر الألماني ستة وثلاثين عاما، أى نصف حياته، فى عزله بـ«قلعة» توبنجن حيث يخمد ذهنه الفصامى إزاء مؤلفه، يحدّد المحلل لنفسه غاية هى أن « يفهم فى حركة واحدة آثاره وتقدمه باتجاه الحق وداخله، ولتكن هذه الحركة موزونة كما الجدلية ومتعددة الخطوط كما الطباقية » (ص ١٣). إنها عملية فهم تدّار، والحالة هذه، بنجاح بواسطة مزيج مدهش بين عقلية المعية وعقلية رياضية. ومع ذلك، فإن المشروع البعيد لهذا البحث لا يستهدف تفسير الأثر حسب تصور معين للذهان، قدر ما يستهدف أن ينصت ويبين النص الشعري للحق (ص ١٤). إن هدف الطبيب السريري، وهم الناقد، متلازمان.

أما مارسيل موري (١١) فهو مجهول قدر ما كان كاتبه المفضل مشهوراً؛ ولأن كتبه عن جول فيون مؤلفة من محاولات متفرقة، فإن فوزه بقلة الدوغمائية يعادل عيب تشكّل يخلّف ثغرات. وموري عاين عن قرب طفولة ومراهقة روائى المستقبل، بما فيه الكفاية لكى يستخلص الصعوبات من جهة صورة الأب، ولكى يشتم وجود « سر » نبين آثاره من خلال تسلّط عند فيرن للرسائل المرموزة والأحجيات والغاز أخرى. إن الفرضيات التى تصورها الناقد لها الحق فى أن تكون متحفظة وأن تستحق منا مائة نزهة عبر « الغابة العذراء المدغلة » - « الرحلات العجيبة ». إن الروائى قد وجد هذه المرة قارئاً فى مستواه: ملاحظ وسخى وأكثر دهاء مما يعتقد.

أما بخصوص فشل باثيس - لدومينيك فرنانديز (غراسى، ١٩٦٧) - وعنوانه يذكر بشكل جد مزعج بعنوان كتاب الدكتور لافورج عن بودليير - فسنعول القليل، قصد الوقوف كما كان متوقفاً على مقالته « مدخل إلى النقد النفسى البييوغرافى » (المجلة الجديدة للتحليل النفسى، غاليمار، عدد ١، ١٩٧٠ م). قبل الشروع فى بحثه عن مؤلف « الصيف الجميل »، يستدعى كنماذج ماري بونبارت، ودولاي، ولابلانش، إلى جوار باشلار ومورون، وبهذا يكون منهجه مركباً، لاعباً بمهارة بكل الأوراق الراجعة فى انتقائيته، إنه يركب فينومينولوجيا الخيال (الماء وخصوصاً الهواء) مع قراءة لنصوص التخيل تريد نفسها فى الوقت نفسه « أفقية »

(كرونيولوجية، دولاي) و «عمودية» (تراكيبية مورون)، ويصل الوضع المحدد المنوح «لصدّات النفسية الطفلية» بهمّ قصى آثار أكاذيب وتنكرات الكاتب التى تخص ماضيه الشخصى - بما فى ذلك رفضه الاعتراف بأنه قد قرأ فرويدا من الشهادات الأولى إلى لحظة الانتحار، فإن السيرة الوجودية لسيزار باقيس تُعّان، وتقوم، وتُبْعث، وتعاد إلى حوارها مع الأثر كله.

(٤) مواقف النقد النفسى البيوغرافى:

إنها مقالة فى المنهج، ويمكن أن نغير اسمها إلى «دفاع وتوضيح للنقد النفسى - البيوغرافى»، باعتبار أن الشئ كان موجوداً قبل أن يكون «مشاعاً». وهى توضح لأن الأمثلة الملموسة متعددة، وعلى هذا المستوى معبرة، وهى دفاع لأن دفرنانديز يكتب بلا جهد، إذا أمكننا القول، وظهره إلى الحائط، كأنه يستطيع الدفاع من أجل قضية خاسرة (لأنه بالضبط فى منتصف العشر سنوات التى تفصل الباقيس عن النموذج المقدم من طرف شباب جيد، ستنفجر قنبلة مورون). إن البديهيّات والمسلمات تترايط بشدّة. وينبغى الاهتمام بمجال متروك دون عناية ظالماً: إن البيوغرافيين الكلاسيكيين («كما تكون الشجرة تكون الثمرات» سانت بوف) لم يدفعوا بأبحاثهم إلى حدّ المعلومات المختفية فى باطن الكتابات، بينما «النقد الأدبى (...) يدرس الآثار كأنها وليدة دماغ خالص» (ص ٣٣)، والحال أن «الإنسان هو مصدر الأثر، لكن ماهية الإنسان لا يمكن إدراكها إلا فى الأثر»، إذن «مهمة النقد النفسى البيوغرافى تتحدّد فى: دراسة التفاعل بين الإنسان والأثر ووحدتهما المأخوذة فى معلّلاتها اللاشعورية (...) ومن البدهى أن يكون مجاله المفضل هو طفولة الفنان» (ص ٣٤). ومن خلال الأثر، ينبغى أن نفهم ليس فقط الثيمات، ولكن أيضاً الخصائص الشكلية، والأصناف التفضيلية فى اختيار كلمة. هناك فارقان بارزان بالنسبة إلى البيوغرافيات القديمة: «لم يعد الناقد النفسى البيوغرافى يقول: كما يكون الإنسان يكون الأثر، بل يقول: كما يكون الطفل يكون الأثر» (ص ٣٨)، وفى مقابل علم المقدسات التى يريد من العبقرى أن يتعلم النجاة من تقلبات الدهر كما فى مقابل الباتوغرافيا التى تشرح كيف تعلّم العبقرى تحويل

نكباته إلى ذهب، فإن « الناقد النفسى البيوغرافى (...) يرى أن الآثار ليست مستقلة عن الحياة، ولا متعلقة بعلاقة العلة بالمعلول » (ص ٣٩). ومع ذلك، وعكس مورون الذى يحكم « الاستيهام » وعكس لابلاش الذى يستدعى « انفتاحا رمزيا » فإن فرنا نديز يفرض الإسراع بـ « قياس تأثير الأحداث على الأثر ». « إن التقريب من الظروف البيوغرافية » يأتى ليحل محل التداعيات الحرة فى التقنية الفرويدية، بالرجوع إلى الشهادات الداخلية (المراسلة، الدفاتر الحميمة) والخارجية (المعاصرون) (ص ٤١). ومن الملائم أن نتجنب بصورة عامة إسناد كل شىء إلى ماضى الفرد: إن الأثر الفنى هو فعلا « رمز مستقبلى للتركيب الشخصية والمستقبل الإنسان » (ص ٤٤). والخاتمة تشدد على الطابع « التخمينى » حتما للصورة النفسية البيوغرافية، التى أنجزها إنسان، يعنى ذلك الذى « يقوم بمعالجته الخاصة » بالاستناد إلى « خصوصية العلاقات الانفعالية » التى بفضلها يصير المفسر شريكا للمبدع (ص ٤٨).

إن هذا الرصيد - البرنامج (١٢) يظهر تماسكا استثنائيا ويعرض نفسه للمناقشة بجرأة جديدة بالملاحظة. فبمجرد قراءته، تتراكم الأسئلة بكثرة. ماهى « حياة » إنسان بالنسبة إلى المنظور النفسانى؟ وكيف الاختيار بين « الحقائق » الثلاث للوضع التاريخى وللمعيش الشخصى وما صيغ منهما فى الأثر الفنى؟ وما نوع « الاتصالية » التى يفرضها الناقد البيوغرافى على الكاتب؟ وأين تختفى ذاتية هذا الأخير عندما ندرس « بيوغرافيته » من الخارج؟ وفيما تفيد ممارسة الفن وممارسة النقد « معالجة » ناجحة أو فاشلة، للمؤلف كما لرسم الصورة؟ إنها أسئلة بدون جواب. إن جانين شاسجى - سمير جيل (١٣) تسجل عن حالة مارى بونبارت - إدغار坡 أن الوقائع البيوغرافية ليست لها « من دلالة أكثر مما للوقائع المنقولة من طرف الغير للطبيب أثناء المعالجة » إن الذات لا توجد بوجه الاحتمال هناك حيث تعتقد أنها موجودة، ومعنى أفعالها يوجد بالتأكيد بالنسبة إليها فى موضع آخر غير الذى يراها منه الآخرون ، وما يهم المحلل، هو ما يشكله المحلل (استيهاميا) عن وجوده الخاص وما يوفر نقطة انطلاق لبناء يعيد رسم ألعاب ورهانات رغبته

اللاشعورية. إن استحضار الآباء الذين اختفوا مبكراً، سنقابله إذن بالتمييز بين الخسارة (الحقيقية) والحرمان (التخيل) والفقدان (الرمزي) - إن الطفل يمكنه أن يعتقد نفسه، وأن يقضى حياته مهجوراً من طرف أم أكثر حضوراً أو أن يجد وجهاً أمومياً مرضياً عند مرضعته، عند عمته، وحتى عند أبيه. إذن لنقرر بالحق - «أن كلانسي»، لكونها صنفت دومنيك فرناندينز، الناقد والمنظر، في عداد رواد نقد نفسي: فلا قصده، ولا مناهجه، ولا الأسس النظرية مطبوعة بخاتم التحليل النفسي المفهوم في معناه الصارم قليلاً.

(٥) مشكل المؤلف:

لقد رأينا فرويد نفسه يهتم بقائشئ الإنسان، وبممكننا أن نسمعه يعهد للمحليلين بمهمة البحث ثانية عن خلفية الانطباعات والذكريات الشخصية التي بها بنى المؤلف أثره، وعن الطرق، وعن العمليات التي عن طريقها أدرجت هذه الخلفية داخل الأثر (س. فرويد: الهذيان والأحلام في «غرايكا»، ينسن - ص ٢٤٥)، أو نسمع إرنست چونس وهو يصرح بشئ مماثل في بداية - هاملت وأوديب - (ص ١٠). وكل هذا يدلّ بداهة على أنه في مادة الفن نكون كلنا، هواة ومحترفين، مبهورين بالفنان، بالأصل الإنسانى للأثر. لنضيف إلى هذا الانبهار (الذى سبق أن تناولناه من قبل) ثقل العادة (أو ضغط الإيديولوجيا)، وسنفهم لماذا استطاع المحللون النفسيون أنفسهم أن يبرزوا تحت هذا الثقل. إن إنسان القرن العشرين يجد (وقد وجد) صعوبة في محاولة التخلص من فكرة الإنسان التي تستند إليها معرفته منذ بروتاغوراس (نحيل إلى ميشال فوكو)، ويجد (وقد وجد) التحليل النفسى صعوبة أمام التحليل النفسى - وهى مذكورة فى المدخل) من وجود اللاشعور. فإذا كان هذا الأخير يتحدد كعمل للآخر داخل الخطاب - وهذه المقاربة تشير بما فيه الكفاية إلى إلحاح رغبة بدون مكان ولا كلام هى فى كل واحد طلب - بحث للآخر متعذر إمساكه وملحّ (مطالبة وبحث، صادران منه ومتوجّهان إليه) - وإذا لم يكن هناك بالتالى شعور للذات ولا مايكفى من الكمال حيث يمكننا تجميعها، ولا هوية حيث نتأكد من

أن نجد لها فيها « استمرارية » (١٤) أخرى غير تلك المجهولة واللامفكر فيها لرغبتها، أفليس من المجازفة مبدئياً إرادة الاستناد إلى شقيقتين فانتنتين هما التماسك والترابط؟ إن ج. شاسجى - سمير جيل و أ. كلانسى كلتيهما تنتجان التناقض عند التوضع فى مجال المنهج: ليس صحيحاً أن ما يحلل الإنسان هو ما يحلل بالقدر نفسه الأثر، وأن بإمكاننا أن نمر من الواحد إلى الآخر كأمر طبيعى.

بالتأكيد، لكن هل يكفى التذكير بأن اللعبة الاستيهامية تشكل الوساطة الضرورية للسير من الخطاب إلى المعيش؟ ما تنبغى معارضته أليس هو بالأحرى هذه المسألة نفسها المتمثلة فى الاهتمام بهذا الإنسان الذى يقيم الأثر، أو حوله أو فى مركزه، أو حتى الذى يتفجر فى الخطوط المتناثرة التى تشكل « الصورة فى السجادة ».

لنذهب حتى النهاية وإذا أمكن إلى حد العمق دون أن نقود المناقشة فى اتجاه البحث عن الأسباب. ودون أن نبرر بقايا إيديولوجية على وشك السقوط الميتافيزيقى، والسياسى، والدينى - الإنسان، الإنسان الكبير، الروح أو الشخصية لا أعرف؟ كل من نضم له الإجلال! ودون حتى أن نجد التحليل النفسى لأجل التقاط عبادة (أخرى أو هى نفسها!) الأب الميت أو (الأب الذى ليس ميتاً تماماً قدره يدهش، وامتيازاته الاجتماعية (وهى فى النهاية جنسية؟) تهدد كل محاولة إغراء من أى كائن إنسانى. لنطرح أسئلة واضحة لا تنتظر أجوبة لأنها تكتفى بإبراز على المكشوف للمواقف المخدوعة، والخرافية، والمخيلة:

(١) لماذا نسعى بجميع الوسائل إلى أن يكون النصّ إنساناً وأن يكون الإنسان داخل النص؟

(٢) لماذا نسعى بجميع الوسائل إلى أن يعكس النصّ إنساناً قبل (أن يعكس) نفسه وأن يشرح الإنسان نصّه؟ ولنضع بنظام هذه التثبيات:

(١) إن النص هو هذا الذى به « يختلف » الإنسان، مُخْتَلَفٌ و مرجأً، بلا نهاية - إن الكتابة غيرية (هذا درس بروسى) واستقلالية ذاتية (وهذا درس فاليرى).

(٢) إن النص يقرأ داخل فضاء النصية، يعنى أنه خارج عن الواقع (فالأدب ليس

هو الواقع)، وخارج عن السببية (ليس للتخييل من مصدر آخر غير بادرة اختلاف أو استرجاع تخييلات هي دوماً موجودة قبلاً)، وخارج عن الشرعية (لايكون للكتابة معنى واحد وقصد الكاتب لا يتمتع بأى امتياز)، وعرضياً، فهو يكون خارجاً عن مملكة التبادل، والمردودية والتواصل (نحيل إلى جان بودريارد). وباختصار، إن الأثر الفنّي، ومن ثم الكلام الذى يكون أثراً فنياً، هو ما لا صلة له بالمساوى، بأية حال من الأحوال، إن رده إلى المُساوى - إلى نفس المعنى، إلى نفس « الذات »، إلى نفس العالم، إلى نفس طريق الوجود - سيكون الوسيلة الناجعة لتدميرته وهدمه حتّى مفهومه. وبهذا سنجعل منه إنتاجاً فى عِدَادِ إنتاجات أخرى، وبعبارة أخرى فى عداد نفس الإنتاجات، تلك التى تتقاسم تنظيمات الواقع. والواقع يظهر على طريقة التماثل، والتشابه، والقابل للتبادل، والسلسلة، والزمانية الموجهة والمتواصلة، والترابطات المنطقية واستراتيجيات الاستبعاد... إن ورقة بنكية، أو تلفراما، أو جريدة، أو كتاباً وجيزاً، هي نتاجات مرسومة، موجهة، مقررة، مودعة - لكن، لنقل: ابتسامة؟ خاصة عندما تشبه ابتسامة القط المفقود فى - أليس فى بلد العجائب!

(٦) حالة الأوتوبيوغرافية:

أن نأخذ الأثر الأدبى على أنه نتيجة بدل معالجته فى مصدره الأصلى وأن نعتبره كانعكاس ومآل وأثر للمؤلف: كأننا نقول عنه أنه ظل، فضلة بقية، ومولود من خيبة. إن كل مؤلف ينشر مصاحباً بتوقيع (لم يعد إلا عنوانا نرسل إليه المدائح أو الشتائم)، وإن كل كتاب يصدر سيكون بداية نظام من الأصداء لنصوص أخرى، وإنه القارئ، هو من يحتفل بالقداس فى هذا الطقس التجمعى، دون أن يكون ملزماً بأن يقارن نفسه بالمؤلف، ويأن يرجع إلى شىء آخر غير نص من النصوص موضوع فى هذه اللحظة فى بؤرة الإشعاع. وليس هنا على الإطلاق إلا حالة (١٥)، على ما يبدو، فيها يكون من الضرورى أن نستكمل الإنسان: عندما يتقدم النص إخراجاً شبيهاً (بتمثيل) بتعريف بهذا الإنسان، ذلك ما يسمى أوتوبيوغرافية.

وأيضاً أَلَمْ نتقبّل صيغة من مثل « الأوتوبيوغرافية تتعلق بالنقد النفسى البيوغرافى»، حتى عندما نضيف « هي وحدها » (لكن ليس بأى حال طبعاً «وبه

وحده». وعلى كل يبدو، وبدهيا، أن قصة إنسان كتبها هو نفسه تستتبع إدراج هذا الإنسان داخل ما يكتبه كأمر يخصه، سواء كان صحيحا أو خطأ، تقريظيا أو تنقيصيا، إلخ (١٦).

لنبدأ بتقديم تجربة - عكسية. إن دراسة حديثة، ولأجل أن تلعب لعبة المؤلف من غير إزعاج، لم تتوان في توضيح المغزى الأتوبيوغرافى لمجموع الأعمال التى تناولتها: « إن المسافة ما بين هذا الكاتب وإبداعه الأدبى قصيرة للغاية، فكل أعماله تمثل إخراجاً لحياة واحدة، حياته هو (...) » (١٧).

وهناك دراسة أخرى تجد لها مخرجاً آخر: « لو لم يترك ثيان كتاباته الحميمة حيث دون أحلامه فى النوم واليقظة (...) لكان منهج النقد النفسى هو الوحيد الممكن. لكنه يكف عن أن يكون كذلك، انطلاقاً من اللحظة التى نمتلك فيها (...) مُعادلاً لمُدخل إلى تحليل - ذاتى (١٨).

والدراسة الثالثة، وهى مع ذلك جد معتبرة وفصلها الأول يوضح بقوة مشاكلنا، تنهض باللبس (إن الاستعانة بالبيوغرافى - وهو لايعنى المنهج النفسى البيوغرافى الذى يكون المعيش بالنسبة إليها أوليا - جد ضرورية) مؤكدة أنه « إذا وجد أثر تحليله يمكن أن يوفق بين البيوغرافى والنصى، فإنه سيكون بحق هو أثر كامو» (١٩).

عندما يتعلّق الأمر حقيقة بأثر، أو بمجموعة من المؤلفات الأتوبيوغرافية، فإن استدعاء معطيات الحالة المدنية والتاريخ يبدو مشروعاً إذا رغبتنا فى الدخول إلى اللعبة التى أقامها المؤلف. وحالة روسو تعتبر موضحة. إن ب. ب. كليمن فى مؤلفه السابق الذكر، والذى هو نموذج فى نوعه، يتابع بعين منتبهة هذا الكاتب الذى يصرّح بلسان سانت - برو: « يالها من سعادة عند الحصول على المداد والورق: أعبر عما أحسه لكى أخفف من التطرق، أخدع قوّراتى بوصفها، والذى بالنسبة إليه يعتبر الفن بوضوح إعلاء، والناقد يصرّ على هذه اللذة فى الكتابة، مبرزاً لذلك (بل أكثر من ذلك) تأثير الأثر على الإنسان كما العكس، لكن دون التنازل مثلاً عن تسجيل أهمية عداوة الأخ الأكبر بالنسبة لجان - چاك الفتى. يتعلق الأمر بحالة

بينية، لن نكون عديمى الذوق إذا قلنا إنها إذن حالة ملتبسة. لكن من ناحية أخرى، يحق لنا أن نجد لذة فى أن نقرأ داخل الأتوبيوغرافى رواية من نوع خاص، فيها يُعرف البطل - السارد بأنه كائن تخيلى. وفى كتاب قطعى، وضع فيليب لوجون (٢٠) أسس، وصيغ ونتائج « ميثاق » يقيمة مع القارئ، المشروع الذى أنجزه الكاتب ليوفر للمحكى وجوده. إذا وجد الميثاق « الفعل التعاقدى المتغير تاريخيا » الذى يخص نمطاً من القراءة كما نمط من الكتابة (ص ٤٥)، فإنه يوجد أدب لا وثيقة للمؤرخين: من هنا، ليس للمؤلف من واقع إلا الأدبى.

(٧) النقد النفسى، أو شارل مورون ١:

لنكرّر بوجه عام، ولأجل تبين الوضع، بأنه سيكون على عمل الناقد الأدبى ألا يراعى إلا المؤلف وقد صار نصاً. فـ « المبدع » فى « واقعه » أمر يهم مؤرخى الأدب والمؤرخين بلا زيادة، (٢١) والمحللين النفسيين الذين يتساءلون عن الإبداعية. ووجهة نظر شارل مورون واضحة جداً كما تبرز فى تصريحاته المبدئية: لا نعلم إلى البيوغرافية إلا فى النهاية، فى سبيل أن نثبت أن « التحليل النفسى - النقدى » لايسعى إلى تبرير كل الشرودات، وباختصار كل استيهامات القارئ. تردّد محمود، لكنه لا يخلو من مشاكل. وعلى كل حال، فقد سبق أن كان عمل مورون، منذ أن كان معروفاً (جينيت) (٢٢) وفى السنوات التالية (ملمان) (٢٣)، موضوعات لدراسات لفتت النظر إلى المخاطر والانحرافات الداخلية، مع الثناء عليه بسبب هذا العمل الرائد. وبخصوص ما هو جوهرى، يعنى منهج التراكبات، فإن الفرصة ستسمح بتوضيحه بما أنه يعمل بعيداً عن الإنسان. لكن من الضرورى أن نذكر الآن التفاوتات التى توجد عند مورون ما بين تصريحاته بالمقاصد، والمبادئ النظرية والتطبيق. وبخصوص النقطة الثانية تأتى الالتباسات صارخة: إن الإنسان المطرود من الباب بصفته بيوغرافية يحاصر النوافذ لى يدخل إلى البيت على هيئة «أسطورة شخصية»، فى حين أن الصراع بين « الأنا الاجتماعية » و « الأنا المبدعة » يرفع إلى أنف التحليل النفسى دخاناً برائحة الهرطقة.

إننا نعرف أن شارل مورون يلتقط بوسائل جديدة الاستعارات الملحاحة داخل

أثر، ليس تماما من أجل إعطائها ترجمة رمزية قدر ما هو من أجل إبراز الشبكة المكونة من العلاقات التي توجد بينها. وبخصوص هذه العلاقات، اللاشعورية بالطبع، يسجل جيرار جينيت أننا نمرّ إلى « أنساق جد واسعة وجد معقدة من الأوجه الدرامية التي تؤلف ما يسميه مورون بالأسطورة الشخصية للمؤلف » (ص ١٣٥). ويستأنف جيفري ملمان التحليل ليبين أن هناك « انفصالا ما بين منهج التراكبات ونظرية للأثر تُعتبر غريبة عنه وتلوح بحذق باستثماره » (ص ٢٨٣). وفي الواقع، ففي الوهلة الأولى تأتي الأسطورة الشخصية « صورة غامضة لذاتية مشتتة، (...) في هروب دائم من الإدراك النقدي (ص ٣٧٩) : وهو مدرك بهذا الشكل، فإنه يقلب الفكرة الكلاسيكية عن الشخصية. لكن مورون كان يتحمل تأثير المحلل النفسي الإنجليزي كرايس وفرضيته عن « الأنا الوسيطة » : ونتيجة لذلك، يملك الأثر في نظره حظ استعادة حالة الاتحاد الكاملة لما قبل الازدياد « ويصير » مشروع تكامل نفسى من أسطورة شخصية (لاشعورية) ورؤية للعالم (ص ٣٨١). إن الدراسة الكبيرة الأخيرة لمؤسسة النقد النفسى هي فى هذا الصدد مهمة: إن بودلير صاحب « القصائد النثرية القصيرة » يخرج مغامرات « الأنا المبدعة » الممزقة ما بين أربعة أوجه ذاتية، الأمير، البهلوان، الأرملة والباغية، الأوجه التى، برغم جذورها الاستيهامية، تكون بالأخص مشيئة.

إن ما كان يمكن أن يصير قراءة تحليلية للنصوص، وما كان يستحق بلا تحفظ اسم « القراءة النفسية » حسب عبارة جينيت الموفقة، ينكشف مع التجربة شكلا ملطفا للنقد النفسى البيوغرافى، مجهّزاً، لنصر على ذلك، بجهاز منهجى دقيق. إن الخطر يوجد منذ اللحظة التى جعل مورون طموحة الاشتغال على مستوى الآثار الكاملة. إنها تقنية خصبة للغاية، لكنها تعمل على حد الموسيقى، مادام صحيحا أننا نجد صعوبة فى الوقوف على عتبة الحضور الإنسانى. وهى تقنية مشروعة شريطة ألا تستسلم لإغراء صورة الفنان وككل مكبوت، فالمؤلف يبحث دوماً عن تجنب الرقابة!

لاشك أن الخطأ الوحيد لهذا الباحث النشيط، لهذا المفكر الدقيق الذى كانه مورون هو أنه لم تُتَح له الفرصة ليعيش سنوات أخرى: لا يمكن أن نتصور كيف كان

سيتفاعل مع تفجّر الفرويدية الجديدة. هل كان سيعيد النظر فى تجربته من الاول إلى الآخر؟ لقد رأينا البعض يجنى فائدة كبيرة من التحول المسمى « بنويوا » (أو لسانيا) الذى وقع منذ عشر سنوات.

إن أحسن مثال يمكن استحضاره عن تعديل من هذا النوع فى ميدان النقد الأدبى، سنطلبه من رائد وتصير القراءة « الثيماتية » (٢٤)، من جان - بيير ريشارد، الذى يمثل فضلا عن ذلك واحداً من المشهورين. ففى كتابه « مالارمى » (سوى ١٩٦١) لا نجد أية إشارة إلى فرويد، لأن الظاهراتية هى التى تحكم المنهج، وفى سنة ١٩٧٤م سيظهر «بروست والعالم المحسوس» الذى تشكل النقاط المسجلة أسفل صفحاته، وهى تشغل ربما ٢٠ ٪ من الحجم العام، قراءة موازية. فهى قراءة «هامشية» تستدعى التحليل النفسى بكيفية دائمة وفعالة، وهى قراءة فائضة، فائرة، بقليل من النفور، لكنها مثبتة ورفيعة مع ذلك، وهى قراءة ثانوية لا يمكنها مهما بدت خادمة، ألا تؤثر على الآخر. على أخراها التى لا يمكن أن تكون أبداً هى نفسها. والحجة، سنجدها إذا أردنا ذلك فى أربع مقالات حديثة (٢٥)، حيث الموضوع هو الرغبة، والاستيهام، والخصاء... إلخ. إن ريشاد لم يعد، لنسجل ذلك، يركز على مالارمى، أو هوجو، أو ميشلى، بل على الساحرة، على جلرفى، على قصيدة أو على صفحة، فالمنهج يتطور فى الوقت نفسه الذى يتغير فيه موضوع العمل النقدى، والتطور يبدو موجّها فى اتجاه يؤيد رؤيتنا للمشكل.

هوامش الفصل الخامس:

(١) المقاومة هي «كل ما يقاوم، في أفعال وأحاديث المحلل، ولوج هذا الأخير إلى لاشعوره» (معجم التحليل النفسي، ص ٤٢٠)، والتحويل المضاد هو «مجموعة من ردود أفعال المحلل اللاشعورية تجاه الشخص المحلل وبخاصة تجاه تحويل هذا الأخير، (نفس المرجع أعلاه، ص ١٠٣).

(٢) نحيل إلى ١. غرين «الانحلال»، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥: «(..) إن الانفتاح على مجال اللاشعور، وهو أولا وقبل كل شيء لاشعوره، شرط ضروري للحديث عن لاشعور الآخرين وليكن لاشعور النصوص الأدبية».

(٣) نحيل إلى فكتور سمير نوف: «الأثر المقروء»، المجلة الجديدة للتحليل النفسي، ١٩٧٠، ص ٥٣، حيث يقول: «إنهم: (أى اللا - محللين) سيكونون إذن مرغمين إما على قبول هذا المفهوم أو ذاك، وإما على رفضه دون أن تكون لهم القدرة على المساهمة في صوغه».

(٤) انظر: «Le Précurseur, Son epreuve et Son sycle»

- المجلة الجديدة للتحليل النفسي - L ، ١٩٧٠، ص ٢٧.

(٥) نحيل إلى جان ستاروينسكى في «عشاء توران» في كتابها «العلاقة النقدية»، ص ٩٨ - ١٥٣.

(٦) نحيل إلى ج. ج. ر. ، في «من الإيروس الجانى إلى الإيروس المجيد»، نوشاطيل، لاباتونيير، ١٩٧٦، ص ١٠، بخصوص التصريح بالوفاء للمنهج النفسى البيوغرافى، وفى ص ١٠٧، بالنسبة إلى الفصل الاستعرائى.

(٧) لتذكر بأن الذكرى - الشاشة عبارة عن صوغ اتفاق، مزيج من الدفاع والمكبوت، ينتمى إلى الاستيهام باعتبار أنه يصنع فى وقت لاحق: «لا ينبغي أن يكون مشهد العقاب ذكرى من ذكريات ليونارد، بل إسهما ابتناه فيما بعد ودفع به إلى طفولته (س. فرويد «ذكرى من طفولة د. دو. فانتشى» ص ٢٠).

(٨) سارة كوفمان: «طفولة الفن» ص ١٠٩ - ١١٧، حيث نجد على أن استيهام الفن ليس إعادة صياغة مادة خام موجودة قبلا، بل إنه يستخدم فى كل مرة، جديداً مع أنه تكرر.

(٩) نحيل إلى: «شباب أندري جيد»، غاليما، ١٩٥٦م.

(١٠) نحيل إلى «هولدرلين وسؤال الأب» ، م ج ف، ١٩٦١ وأعيد طبعه سنة ١٩٦٩. من الضروري أن نسجل أن هذا الكتاب هو الأول (والوحيد فى هذه الفئة) الذى استعمل اللغة اللاكانية بطريقة واضحة ودقيقة فى نفس الوقت لأجل معالجة ظاهرة جمالية ' فهو يتناول عصاب الشاعر باعتباره ثقباً فى الذاتية باعتباره نقصانا فى شبكة «الدوال»: إنه اسم - الأب هو

المرفوض، «المستبعد» من نظام الدلالة المكوّن للذات، إن العمل الشعريّ للغة كما حافظ المنفى يجدان نفسيهما في علاقة بحقل السلب - وهناك مسألة أخرى تستحق الذكر: ينطلق الكتاب في البداية تحت إشراف چان دولای، مع التصريح في النهاية بنيته في البقاء «على حدود دراسة باتوغرافية» (ص ۱۳۳)، الأمر الذي يبرز ضبابية هذه المقولات ويشير إلى أي حد يكون البحث النفسي البيوغرافي محاصراً (مهّداً) من طرف أفق المرض الذهني.

(۱۱) نحيل إلى: «جول فيرن، هذا الفضولي جداً» غاليمار ۱۹۶۰، وإلى «اكتشافات فيرن الجديدة»، غاليمار ۱۹۶۹م. وليكن اسم جول فيرن مناسبة لتذكر فصلاً من كتاب «فتوّات ج. فيرن» (مينوي ۱۹۴۷)، يحمل عنوان «أوديب - المبعوث» حيث يستكشف ميشال سيريز بتلذذ ظاهر ومهارة فائقة، مع صقل سيادة الفرويدية كنظام تفسيري، ذلك المشهور جداً ميشال ستروكوف لأجل أن يلتقط منه، بطريقة غير مباشرة، حوافز جريمة قتل الوالدين، وحوافز المشهد البدائي والعيون المفقوة، وباختصار أوديب، لكن سيريز يصرّ على أن «باستنادها إلى الخرافة، تملك الرواية رواسب، وميشال يفرط في الأسطورة» (ص ۵۳) ويستخلص النتائج مستأنفا القراءة في دورة أخرى.

(۱۲) هذا هو الرصيد - النموذج الذي يسمح بترتيبات في علاقته بأهداف محددة وهذا هو حال الكتاب الصغير لصاحبه جوزي - ميشال مورو المنصبّ على «الأوديب عند فولتير» (مينار ۱۹۷۳)، تلك المسرحية التي تبدو بالأخص عند مجابقتها للنموذج السوفوكلي منحرفة. بمقابلة إسهام فولتير الشاب - الذي كان يعتقد نفسه ابناً لمؤلف الأغاني روشبرين، لا للاب أروي - بابتكار شخصية فيلوكتيت، يبرز الناقد تعلقاً بالأم التي اختفت مبكراً.

(۱۳) بخصوص المنهج البيوغرافي، نحيل إلى: «من أجل تحليل نفسي للفن والإبداعية» ص ۴۹ - ۶۲.

(۱۴) إن النقد الذي يستلهم البيوغرافيا (..) يرى في الأثر امتداداً لتجارب حياة المؤلف، في حين أن التحليل النفسي يرى فيه علاقة انقطاع» هذا مايقوله أ. غرين في كتابه «عين زائدة»، ص ۳۲.

(۱۵) وفي الحقيقة، وبشرط أن تدرج مثل هذه المؤلفات في الأدب لأنها تصدر عن كاتب، يمكننا أن نضيف حالة الكتابات الهجائية: فالبيرشيسنو في «مقالة نفسية نقدية عن ل. ف. سيلين» (مينار ۱۹۷۱)، يبحث عن مكونات صورة اليهودي في العديد من الآثار.

L'Ecole les cadaures et Les beaux drays و Bagatelles Pour Massaue

مستعينا بالتراكبات المورونية.

(۱۶) نحيل إلى جان ستاروينسكي «العلاقة النقدية» 1، السابق الذكر.

(۱۷) فيلي زفران في «لويس فرنانديز سبيلين» منشورات جامعة بروكسيل ۱۹۷۶م، ص ۱۹۴، وتعود أصالة هذا العمل إلى استناده في «علاقات الموضوع» إلى الجهاز المفاهيمي لميلاني

كلاين كما نظمه موريس بوفى (وهنا نحيل إلى «الآثار النفسانية» بايوط ١٩٦٧).

(١٨) جان ريكاناتى - نظرة إجمالية عن التحليل النفسى للفاجر روجى فايان - بوشى - شا سطليل، ١٩٧١، ص ١٢.

(١٩) آلان كوست - البير كامو والكلام الناقص، دراسة نفسانية - بايوط ١٩٧٣، ص ١٨ : ١٩ . إن هذه الدراسة لاكتفى باللجوء إلى طفولة كامو: إنها تنظم، وتعيد تنظيم المصير الإنسانى - الأدبى فى «دورات» فى داخلها تكون المؤلفات فى جزء كبير منها مقروءة لذاتها.

(٢٠) نحيل إلى «الميثاق الأوتوبيوغرافى» سوى ١٩٧٥ . يقدم هذا الكتاب مثالا جيدا عن قراءة نصية لكتابة أوتوبيوغرافية، وبالضبط مع «الكتاب الأول للاعترافات» (ص ٨٧ - ١٦٣). ونحيل إلى الفصل الموالى من هذا الكتاب

(٢١) من خلال بيبولوجرافية جيدة يمكن أن ننوّه بأربعة مؤلفات: مدخل إلى تحليل - نفسى لما لارمى «نوشاطيل ، لاباتونيير، ١٩٥٠، اللاشعور فى آثار وحياة جان راسين» (كورتى ١٩٥٧)، من الاستعارات الملحاحة إلى الأسطورة الشخصية، مدخل إلى النقد النفسى «(كورتى ١٩٦٣)، بودليير النهائى» (كورتى ١٩٦٦).

(٢٢) جيرار چينيت فى: «القراءات التحليلية». ضمن (أوجه) سوى ١٩٦٦ م ، ص ١٣٣ - ١٢٨.

(٢٣) جيفرى ملمان فى «بين التحليل النفسى والنقد النفسى» ضمن مجلة - شعرية (الفرنسية) عدد ٣ أكتوبر ١٩٧٠ م ، وبالأخص انطلاقا من ص ٣٧٢.

(٢٤) من الواضح أننا نحصر نظرتنا الشاملة عن النقد الذى يستلهم التحليل النفسى فى الكتاب الذين يستدعون الفرويديّة بطريقة غالبية، إن لم يكن حصريا. ونحن نعرف أن هناك نقاداً معاصرين، مثل: ريم. البريست، وج بليين، وج بكون، وج بولى - قد استعملوا مؤقتاً أو دوماً مفاهيم مستقاة من التحليل النفسى. ويملك وج. چينيت وچان رايمون (نحيل إلى - «شعرية الرغبة» - سوى ١٩٧٤) كفاءة يتركها غالبا على هامش أبحاثهم . أما بالنسبة إلى جان ستاروبنسكى الذى يرتبط اسمه على العموم بهؤلاء، المشهورين فى الجمع بين الظاهراتية والتحليل النفسى (انظر مواقفه المتباينة فى التحليل النفسى والمعرفة الأدبية فى «العلاقة النقدية، ص ٢٥٧ - ٢٨٥)

(٢٥) هذه المقالات جمعت فى كتاب:

(Microlectures et Pages Paysages) Coll. (Loetique), Seuil 1979 et 1984.

ومن منظور «التيماتية التحليلية» Thematique analysante ويخصوص بروسى يمكن الإشارة إلى دراسة جوان روزاكو Joan Rosasco:

(Aux sources de la vivonne) Poetique, 25 Ferrier, 1976

الفصل السادس

قراءة النص

« يقوم منهجنا على الملاحظة الواعية للعمليات النفسية غير السوية لدى إنسان آخر، يمكننا أن نحرز قوانينها وأن نصوغها. أما الروائي فهو يسلك غير مسلكنا: إنه يركز انتباهه على لا شعوره نفسه بالذات، ويصيخ السمع لكل قواه المضمرة ويمنحها التعبير الفني، بدل أن يكتبها بالنقد الواعى. فهو يعلم من داخل نفسه ما نعلمه من الآخرين: ما القوانين التى تحكم حياة اللاشعور، لكنه لا يحتاج بتاتا إلى إدراكها بوضوح: فبفضل قوة احتمال ذكائه، تاتى هذه القوانين مندمجة فى إبداعاته».

(س. فرويد: الهذيان والأحلام فى «غراديقا»، لينسن، ص ٢٤٢).

أن نقرأ بواسطة فرويد متنا أدبيا (ولا تهم الأحجام: من المقطع إلى الأثر كله) بعيداً عن المؤلف - يعنى بوضعه خارج اللعبة (١) - نشاط يعاكس عاداتنا النقدية ويشير مقاومات مبهمه حتى عند هؤلاء الذين قلما تنتظر منهم، مع أنه هنا يمكن أن يوجد مستقبل أبحاث «التحليل النفسى الأدبى».

إن أندري غرين يؤكد على أن «هذا الاحتراس حيال الروابط ما بين المؤلف والأثر (....) مصاحب أغلب الحالات بمطالبة عاطفية لا يمكن ألا نلاحظها (كتابه «عين زائدة»، مينوى ١٩٦٩، ص ٣٣). لنفهم أنه هنا يوجد ما يشبه سعى مشكوك فيه إلى قتل الأب للحلول محلّه: ما نعرفه أكثر من اللازم، ويعرفه بواله بوث أفضل من أى

أحد أن الناقد كاتب لم يبلغ غايته، فلا هو مخفق ولا هو ربما «مكبوت» لكنه الذى كان يخاف أن «يكتب» (بالمعنى اللازم للعبارة: إن الكاتب «يتخيل» بحرية و«هكذا» و«عن لا شيء»، والناقد عامل ملتزم مربوط إلى حلقه). ومهما يكن، فإن جزءا أكثر فأكثر أهمية من البحث يتوجه نحو طريق التحليل النفسى النصى(٢). ولهذا الأخير نماذج وطموحاته ومناهجه ومتغيراته (وهذا دليل صحة). وسيقدم نفسه هنا فى آخر هذه النظرة السريعة لأنه النهائى: فهو آخر ما ظهر، ويدفع ببروتوكولات تدخله إلى الحدود القصوى، حتى الأخطار الملازمة لكل خرق طليعى - الأخطار التى بدونها لن تكون هناك آمال. وكل هذا ليس أمراً بديهياً. عندما نفكر بشكل من الأشكال فى الماضى الذى انبثق منه، فإن تضخم البرامج النظرية ينذر باكتساحه وإعطائه مظاهر الإرهاب، ومن جهة أخرى، ولاستمتاعه بمحاسن الموضوعة، فقد كان الترميق والأبحاث المترددة (ينبغى العمل بسرعة!) غالباً ما تشكل الحصاة الأكثر يومية بالنسبة إليه. وبهذا، إذن، سيكون عسيراً النظر فيه بوضوح كما الكلام عنه بدقة.

١. غراديشا: أهى خطوة الراقصة أم خطوة المتعبدة؟

مرة أخرى سنحظى بمسابقة عند فرويد. هما اثنتان، فى الحقيقة. لكننا لن نحتفظ من «موسى» لميشال أنج إلا بالدقة التى يبدىها المشاهد (المعنى كثيرًا، وهو يعترف بذلك، لأسباب غير جمالية) عند الحكم على المفعول الشامل لما بعد مجهود عضلى لذراع، وتموجات لحية ووضع أصبع. ويبقى فى قمة أعماله الرائعة «الهديان والأحلام فى «غراديشا» لينسن، رافعا رأسه وأتيا بالجديد لما يقارب السبعين عاماً. إنه النص المرجع بشكل أقل للتيار منه لملاحظة تمرس بفاعلية نادرة والذى لا يخلو من لبس.

هى قصة معروفة لعالم آثار شاب صار مغرماً بتمثال صغير يمثل قدم امرأة على وشك الانطلاق (لتكن غراديشا)، يرحل لإتمام بحثه فى بومباى حيث سيغرق فى التيه، وهناك سيتعرف، بعد أن أخذها على أنها شبح، على صديقة الطفولة، الأنسة برتغانغ (لتكن: المشببة الجميلة)، التى ستجد وسيلة لعلاج، بفتح عينيه على

الموضوع الحقيقي لعشقه، يعنى هى بالذات... إن هذا الملخص لا يأخذ بعين الاعتبار نسيجا روائيا غنيا جداً، مطرزاً بالطوارئ، والشخص الثانية والأحلام، ممزوجاً أيضاً بخطاب ذى معنى مزدوج يقدم مفتاحه عندما نضع أقدامنا مرة أخرى على أرضية الرغبة المقبولة. إن فرويد يقوم بتحليل نص هو قبلاً إذا صح القول قصة تحليل، بل تحليلين: ذلك الذى تقوده بدقة «زويه» (لتكن: الحية)، وذلك الذى ينبغى أن ينجزه دون أن يعلم ذلك المؤلف، ينسن، هذا كما أن ذلك مؤسس على «حدس» عجيب، للعاشقة وللشاعر، وأن يكون هناك إخراج متصل لهذيانته ولحقيقته، فإن هذا هو ما يفتن فرويد، وهذا أيضاً هو ما يضايق بعض المعلقين: إن الزوجة جميلة جداً، إن النص، على ما يقال، يتلام بالكثير من الليونة مع هذه القراءة التى لا دليل بخصوص صلاحيتها كنموذج قابل للتصدير إلى مناطق أدبية أخرى. ونضيف: إن هذا القارئ، الذى لا يضاهى قد كان له، طبعاً، الفضل فى الرؤية الواضحة، لكنه التقط فى الأكثر أنموذجاً نظرياً - ميكانيكيات انفعال لا شعورى - يختزل القصة إلى تصوير للحق ولعاجته. تفرد الحالة ومسير مُختزل: إنهما القيدان الأولان اللذان يبدوان فارضين نفسيهما. بماذا نواجههما، إن لم يكن بهذين السؤالين: وماذا بالضبط لو يسمح كل نص أدبى بأن نلمس فيه نوعاً من الكشف، الكتم، وحتى السرى، عن اشتغاله نفسه، بما فى ذلك اللاشعورى؟ فيم يكون فعل إنتاج علنى لسلسلة معنى (لها فى ذاتها تماسك فريد، مؤثر، ومحيرة، لنعترف له بذلك) تشويها للنص، الذى ينبغى بالتحديد، إذا كان جديراً بهذا الاسم أن يهب لحمته لكثير من شبكات الدلالة؟ إن المشاكل العصابية لنويير هانولد هى فقط مظهر واحد للقصة، فهى تشتمل فضلاً عن ذلك على قصة حب تقليدية وحكاية سفر (ألمانيا - إيطاليا) واستحضارات غريبة جداً، العصور القديمة.. إلخ. وبما أن هذا الشكل، المتدفق أمامنا دفعة واحدة، المكتشف من طرف فرويد يحدث مفعول رعشة، فلذلك نريده مستثنى من الحوافز الأخرى، ولأنه ينظم هذه الأخيرة بدقة، فإننا ننسى أن هناك تنظيمات أخرى ممكنة.

يستحيل علينا، بسبب هذا الحيز، القيام بملاحظة دقيقة للمنهج الذى يسلكه فرويد

• - غراديفيس، لكن هذه الفجوة قد سُدَّت مقدما: إن سارة كوفمان (فى «أربع روايات تحليلية» غليلي ١٩٧٣، ص ١٠١ - ١٣٤) قد أوضحت بوضوح وبحدة محاسن وعيوب العملية الفرويدية. فبعد أن فحصت مخاطر الملخص أو بالأحرى الملخصات المتتابعة التى عن طريقها تجد نفسها مقدمة فى شبكات سردية تلك العناصر البارزة المستخرجة بالإصغاء الطافى لفرويد، فإنها تبين أن قراءة أكثر تفصيلا، أكثر وفاء لحرف النص، تسمح بتفسير هو أيضا أكثر غنى.

وتطرح هذا السؤال الأساسى بالنسبة إلى أبحاثنا:

«ما الذى يسمح باختيار ما سيكون، أو لا يكون، محتفظا به فى الملخص؟ وعندما نلخص، هل نحذف فقط سحر النص»^(٣)؟

الآن نحول المحتوى أيضا، ألا نكون قد أنتجنا نصا آخر» (ص ١٠٤).

نعود من ذلك إلى هذا: إن الشرح الفرويدى للنص له وظيفة توضيحية فهو يبيع إعادة بناء صحيحة، لأنه يشتغل على غرار تفكيك، لكن إذا كان التقطيع عمليا، فإن الانتقاء يمثل خطرا يصعب تقديره (انظر الأمثلة فى ص ١١٢ - ١١٣). فوق ذلك، فإنه يمكن أن يصير مفاجعا تجريد الخطاب من جسده البلاغى عندما نخضعه تقريبا لأشعة س. وبهذه الصفة فإن استئناف قراءة فرويد من طرف س. كوفمان لا يغير شيئا فى الجوهر (وبذلك يمكن أن نعيد قراءتها هى الأخرى): ومع ذلك فهى تقترح أن النظر الأكثر انتباها للتأثيرات النوعية - ينبغى أن نقول عنها «أدبية»؟ - لا يمكنه إلا أن يجلب الماء لطاحونة التحليل النفسى.

أما أنا فقد حاولت، فى «غرايفيا بالمعنى الحرفى»، أن أظهر نظراً أكثر انتباها إلى التأثيرات النوعية - هل ينبغى أن نقول عنها «أدبية»؟ - التى تغرى لاشعور القارئ، وتستنفره، وتدفعه إلى التدخل.

٢ - التدخل فى النص:

سيكون أقل صرامة (هذا المؤلف يعود إلى سنة ١٩٠٧م) وسلامة فى الوقت نفسه التشديد، كما فعلت س. كوفمان، على أن «قراءة فرويد، وهى القابلة للتأويل، قدر ما هى متعددة المعانى (...)، تبقى هنا قراءة هيرمينوطيقية وثيماتية» (١٣٤). إن

التفسير يركز أولاً على التلخيص لأجل الاشتغال على الخطوط العريضة للتنظيم الاستيهامي - وإذا شئنا قلنا الكلمات الرئيسية في الجملة، لكنه من بعد أو في نفس الوقت يشتغل بحرف النص، بحرفيته، التي لا يمكن أن تكون بدون معنى - ليس فقط الصفات، لكن الكلمات - المفاتيح، والتركيب، والتقطيع، وصولاً إلى الصواتم والرواسم التي بواسطتها يتحقق في كل واحد منا، في النقطة الحساسة للقاء بين النفس والجسد، تسجل اللغة.

لنكن في شأن ذلك أكثر وضوحاً: لأجل ألا نسقط في خطأ الهيرمينوطيقا القديمة - التي تنقل، ومن ثم تترجم، وفي النهاية تفك السنن أو تثمن المعادلات الرمزية - فإن التفسير يفترض الكثير من أنواع الأنشطة المرتبطة بدقة بالكثير من أبعاد المجالات.

وبخصوص الحقول، فإن المقياس يمتد من الآثار الكاملة إلى السطر الواحد: ولا يتعلّق الأمر هنا بأية مفارقة، إذ يكفي التفكير في المونوستيش Monostiche المشهور لأبولينيير الذي يحمل عنوان المرتل:

والخييط الوحيد لأبواق البحرية^(٤) ET l'unique Cordeau des trompettes marines, مروراً بالمؤلفات المأخوذة على انفراد والمقاطع الملاحظة بالمجهر. إن الأساسى هو أن نقيم سياجا للنص الذي سنقرأه، وألا نجعله يفيض إلى الخارج بل، إذا أمكننا القول، إلى داخله الذي هو قبلاً فيض بفعل الاختراقات اللاشعورية، وأن نعين حدود الفضاء لأجل أن نتجز فيه مسارات، وأن ندرك فيه ترابطات المدلولات وأصداء الدوال (يكون ذلك في النفي أو القلب)، وأن نحصر موضع التيارات السريعة التي ينبغي تجنبها بحمل زورق الإنقاذ لتعطيل الدوار، وباختصار، أن نصغى لأجل أن نتدخل: التفسير Entre - Pr'eter, Inter - Pr'eter سيقول ر. ماجور^(٥).

إن المشكل هنا مضاعف. فمن جهة نربط (بخلق روابط غير متوقعة، وعلى أى حال مستحدثة) بين تمثيلات منفصلة ظاهراً، ونجرى مونتاچاً للقيم (بالمعنى

اللساني)، ونرفض التمييز بين نظام التصوري ونظام الإدراكي، ونخلق نزاعاً أو انسجاماً بين الكلمات - الأشياء والأشياء - الكلمات: نعالج النص كحلم نريد أن نستخرج منه التراكيب المضمرة، مع أننا لا نعلم إلا على سبيل الاستثناء إلى المعاجم الثقافية («الإمبراطور هو الأب» يقول فرويد، أكثر حرصاً مما نظن على الرموز الثقافية. نحيل إلى مؤلفه «تفسير الأحلام»، الفصل السادس). ومن جهة أخرى، وعلى أي حال هكذا يتصرف المحلل - وقت المعالجة بمبادرة منه أو باقتراح من المحلل، فإننا نبحث عن الترابطات، ما يأتي لينضاف تلقائياً إلى عنصر مملكت للنظر بفعل طابعه الغريب أو بفعل تفاهته القصوى (من مثل: «سيدة بشوارب كبيرة»/ شخصية «بدون ملامح خاصة»).

كيف ذلك، سيصرخ القراء المتحفظون، من يقوم إذن بالترابطات؟ بدون ترابطات تقولون، لا وجود لمعنى، بدون مريض، لا وجود للترابطات: هذا منك إيمان بليد بالشعوذة ليس كذلك: إن الناقد هو الذي يقوم بالترابطات، ولا داعي لفضح الخدعة بما أنه لا وجود لبحث علمي لا يتدخل فيه الباحث (من هذا جعل هيزنبرغ قانوناً، يحكم لا الخيال فقط والأشياء» المحددة بدقة كما الذرات الفيزيائية، التي تتعلق بكل ما يقبل التكميم). فالناقد يترابط مع ما يكونه كذات، ولهذا فهو لا يخلق الترابطات بطريقة اعتباطية: بل باستيهاماته دون أن يسقط في التخيل. لأنه يمتلك بعض التقنيات التي تعتبر إلى حد ما قواعد للتوضيح^(٦) - وهنا سنجد مرة أخرى شارل مورون - ويمكنه أن يشغل لحسابه ما يمكن أن نسميه قانون كونية اللاشعورات. وفضلاً عن ذلك، وهذا ما لا ينبغي أن ننساه، فإن التلذذ الذي نحسه عند استرجاع النص أثناء القراءة لا يتوقف فقط على فك السنن، والتعرف إلى معنى، قدر ما يتوقف على إدراك متميز، لعمل (التكثيف أو التحويل، على سبيل التمثيل)، إنه القول بأن الناقد لا يطمح فقط إلى إعادة دلالة جديدة: إنه يستهدف إعادة تأسيس ذلك الإعداد - ذلك الذي يسميه بودلير «السحر الاستحضاري» ورامبو «خيمياء الفعل». وربما ينبغي في هذا أن نسجل تأخيراً عند القراء - النقاد بالنسبة إلى القراء المحللين الذين يعرفون من زمن بعيد أن أهمية النص - ليست

هذه مجرد ذريعة منهم للملاحظة؟ - تكمن فى الصيرورة فى تسلسل النص،
والادباء، ويوجد هنا ما نقر به بالحق لهؤلاء الذين يهتمونهم بأنهم «يسطحون»
النجاح الجمالى، لا يتطلعون أغلب الأحيان إلا إلى إيجاد وتوفير حل لما يكونونه فى
أحجية.

صحيح (وللأسف) أن بعض الهواة يرون فى التحليل النفسى قبل كل شىء جرأً
من الرموز: فكل شىء أسطوانى يبدو لهم قضيباً (والا فالوسا!) وكل شىء مقعر
فهو ثدى الأم، ويحصل التردد أمام القبعة الرخوة التى يذلمهم ازدواجها المتناقض!
إننا لا نقوم بتحليل نفسى مختزل للنص إلا لأن لنا معرفة مختزلة عن التحليل
النفسى. لكن ضعف القراء لا يحتاج إلى دليل، إلا إذا كان من أجل فضح عدم
الاختصاص: إن الاختلاف الحقيقى لا يحصل بين أحسن وأسوأ فكأكى الشفرات،
بل بين أولئك الذين يستعملون النص لفائدة النظرية وأولئك الذين يستعملون النظرية
لفائدة النص.

أنكتفى بهذا الاعتراف الذى يمهد لقراءة " La Marquise d'o " :

«لا شىء يبيح للمحلل النفسى الالتزام بمثل هذا المنهج، غير أنه يقسم على قرائه
اللذة التى استطاع أن يخبرها عندما يكتب على هامش نص ستكون صياغته خاصة
به» (٧).

أم نكتفى بهاتين الجملتين اللتين تؤطران تقاطعا طريفاً بين «الغريب» و«السقوط»
(وهما روايتان لألبير كامو):

«من هجره إلى قراءته ينتظر كل واحد شيئاً ما، أكثر من هذا، فهو عندئذ يملك
نظرية توجه انتظاره، سواء أكان واعياً أم لا (...) أن يتمكن كاتب من وضع
تشخيص دقيق ومضبوط بذلك الشكل لمرض الفرد الأوروبى أمر يبين مدى عبقرية
كامو» (٨).

إن «الكتابة على الهامش» تكون كاشفة، مثل السعى إلى «صياغة» بصفة
شخصية، مثل العزم على تصوير نوع من الرجال فى عصر معين: يقترح ج.

حسون ومسعود خان على القارئ الجاهل مسارات غير منتظرة قدر ما هي مثيرة، في حين أنهما يتبعان بكل شفافية خيطاً غريباً عن الاهتمامات المسماة أدبية. والنموذج المقبول مسبقاً من هذا النوع، هو بلا شك ذلك الذى قدمه چاك لا كان فى «محاضرة عن الرسالة المسروقة»، التى تفتتح بشكل رمزى مؤلفه «كتابات». وهو افتتاح ذو دلالة بما أن دورة الرسالة المشهورة من الملكة (ونحن لا نعرف من أين أتت) إلى الوزير، ثم إلى دويان، تسمح بتحليل جوهري: هو تحليل تداول «الذال» كمكون للذات. القراءة هى جد «موجهة من طرف نظرية توجهها»، سيقول مسعود خان، لأجل توضيح المواقف المذهبية المجردة قدر ما هى مجردة، لكن فى الطريق، مع المساهمة فى الاستدلال، يكون عدد وافر من الجزئيات خاضعا للنظر بمهارة باهرة. وهذا أمر لا يثير الدهشة مادام من قبل هاوذى ثقافة عالية وأستاذ سيسجل بطيبة خاطر على الواجهة المزخرفة لمدرسة باريس الفرويدية تلك الحكمة السقراطية المكتملة كما يجب: «لا أحد يدخل هذا المكان إذا لم يكن مهندسا أو أديبا».

٣ - من الترابطات «إلى التراكمات» (مورون ٢):

فى جزئها الأول بأكمله، تقدم القراءة اللاكانية للرسالة المسروقة بسهولة نمودجا (٩) للتدخل الفعال للمسارات المنتجة للمعنى، ومع ذلك فهى لا تجعل من نفسها نمودجا مخصصا للنقاد. وهذا أمر سار، لأنه لا شىء ملتبس مثل نمودج للأشياء، حسنا كان أو سيئا. لنبين أولا خاصية حكاية إدغار پو فى كونها تحقيقاً تحصل فيه الكثير من التماثلات بين عمل المخبر وعمل المحلل، وهذه الخاصية نفسها ستحذرنا من محاولة انتحال بلا تبصر للفك اللاكانى. ولنلاحظ من بعد أننا نمتلك، فى حقل مجاور، نوعاً من النمودج التناظرى: إنها أعمال فيليب لوجون عن ميشال ليريس (١٠)، وخاصية هذه الأعمال مكررة لكون النصوص المدروسة ليست فقط أوتوبيوغرافية، بل هى صادرة عن كاتب اهتم كثيراً بالتحليل النفسى، لأنه أنجز تحليله الخاص ولأن مهنته كعالم بالسلالة جعلته يتأثر بخطاب الآخر. إن ليريس قد سجل ودون كتابة أحلامه، وأفضى إلى الجمهور بعينات من

الترابطات الحرة فى شكل معجم (وبالخصوص المؤلف الذى يشير عنوانه إلى طريقة الجنس التصحيفى التقريبى Glossaire j'y serre mes glases (١١)، ولم يكف عن تأليف حكايات مجزأة عن حياته من خلالها يقدم العمل الشعرى للغة خيوطا موجهة وقوية بخلاف أية كرونولوجيا. إنه الوضع جديد، إذن، بالنسبة إلى ما نجده عادة فى الأدب. وهذا لا يمنع من أن عمل العرض والقراءة على ضوء مزعج، والتقاطع وإعادة التقاطع المنجز من طرف ف. لوجون هو من أخصب الأعمال التى قدمت فى السنوات الأخيرة من طرف ناقد. وعرضيا، يبدو واضحا هنا أن النصوص الصادرة عن كاتب له بكيفية مباشرة صلة بنظام التحليل النفسى لا يمكن التقرب منها بدون إشراك كفاءة موازية، تماما كما لا ينبغى أن نقرأ رائعة چويس «يقظة فينغان» أو أشعار إزرا باوند إذا كنا لا نعرف إلا اللغة الانجليزية. وما سينتج عن هذا الأمر فى المستقبل أن الاختصاصيين فى الأدب سيكونون مكرهين على اكتساب تكوين المحللين.

إن عمل لوجون، علاوة على جودته الخاصة، لا يكون على تمام الإقناع إلا لأنه استفاد من خزان الترابطات المعجمية والوقائعية فى نفس الوقت، وهو القاموس نفسه الذى استطاع ليريس استثماره وهو يقود تحليله الخاص، والذى له فضل إضافى فى أن يوفر فى الوقت نفسه الصياغة الأدبية والصياغة اللاشعورية، وهما غير قابلين للانفصال. إن وضع الناقد بعيد عن أن يكون على الدوام بمثل هذا الارتياح، هذا أمر نحذره. وهناك مصادر أخرى تعرض نفسها لإخفاء عوزنا. وتستحق حالتان خاصتان (وقد سبق ذكرهما) أن نستحضرهما. الأولى أظهرت إمكاناتها، هى حالة الأحلام الأدبية، التى اهتمت بها مثلا مارت روبير بصدد فلوير (فى كتابها «رواية الأصول وأصول الرواية»، غراسى ١٩٧٢، غاليمار ١٩٧٧م) والآن بوزانسون بصدد الرواية الروسية (فى دراسته: «قصة وتجربة الأنا» فلا ماريون ١٩٧١)، وأوكتاف مانونى بخصوص حلم بودلير المحلل من طرف ميشال بوتور (١). مانونى فى: «مفاتيح للمتخيل أو المشهد الآخر»، سوى ١٩٦٩م - ص ٢٦٣ - (٢٧٤) (١٢). والأخرى، هى التى لم يتحدث عنها المحللون النفسيون (والسبب المادة

الخام غير مألوفة لديهم)، ولكن من الممكن أن تبدو فعالة لإسنادها النص إلى تاريخه الداخلي الخاص: تاريخ المسودات (١٣)

وفيما يخص الأغلبية الكبرى من النصوص الأدبية، وكيفما كان جنسها، فإن منهج التراكمات، الذى ابتكره ووضحه شارل مورون، هو الذى ينبغى الاستناد إليه قبل أى شئ. لقد سبق أن حذونا حذر جيفرى ميلمان فى مقاله بمجلة «شعرية» الفرنسية (عدد ٣ - ١٩٧٠ م). سعياً إلى إبعاد الحضور الملحاح للكاتب، فلنحذو الآن أيضاً حذو هذا الناقد الأمريكى فى وصفه هذه الميكانيكية على الوجه الاكمل. إن مورون، إذن، يلتقط فى أكثر قصائد مالارمى كما فى تراچيديات راسين «شبكة من الصور الثابتة» والحالات النفسية التى تبدو كأنها «تتكرر من قصيدة إلى قصيدة، وتخترق كالقطرى المنطق «النثرى» للمؤلفات (ص ٣٧٣)، وعلاوة على ذلك، فهو يصرح بأن «كل صورة بلاغية تكون واعية، والفكر الذى يعقدها يكون كذلك بشكل أقل بكثير» (المرجع نفسه، ص ٣٧٤). وميلمان يقرب هذه «النقط الملحاحة الثابتة» من نقاط التقاطع عند فرويد، التى تنتظم حولها الصياغة القانونية، مع الإشارة إلى أنه بفضل الشبكة (الترابطية) «لا يتم القفز إلى الضمنى عن طريق الترجمة الرمزية، بل عن طريق التحويل على طول سطح الكتابات (ص ٣٧٥). فالناقد النفسى «من مثل دويان (أو فرويد)، يبدو كأنه يقوم باكتشافاته مركزاً انتباهه على منطقة لا نفكر حتى فى مجرد النظر إليها: لا على النصوص، بل على اللعبة الغريبة للترسيمات التى تنشأ بين مختلف المتواليات النصية» (ص ٣٧٧). وبخصوص هذه الصيغ ليس هناك من مأخذ.

غير أنه يمكن منحها حمولة أكثر اتساعاً. فالتراكمات تسمح، وهى بين القصائد أو بين المسرحيات، بإعادة بناء الصلة، و«المنطق» اللاشعوريين اللذين يوضحان الوحدات لبعضها البعض - الاستعارات أو الأدوار، وقيمة المعنى لا تكمن فى هذه الوحدات المأخوذة بانفصال، فهى تنشأ عن وجهة نظر تتأتى بتطابق الصفيحات التى تعكس فى كل لحظة أثر الدلالة. وهذا هو التنظيم (المرن بطبيعة الحال) الذى نكتشفه عن طريق الوحدات الموضوعية الثابتة، والذى يبقى مستقلاً عما يريد التركيب

السطحي أن يقوله مباشرة، هنا والآن: مهما تنوعت شخوصهم، فإن أرميون وأغربين وفيدرا شخوص تدير نفس الصراع. وهنا نجد المنهج الأولى في رفض المعنى الظاهر للعيان، لأجل الكشف عن الترابط الخفى. ونحن نمتلك متغيرين: جدول الخطابات، والصنف الذى تنتمى إليه الظواهر المتواترة، ومن ثم تتحرك مختلف الألعاب. ومورون يعمل فى إطار الآثار الكاملة: فهو يقابل بين («يراكب») المؤلفات، وهى نفسها بأبعاد متغيرة، لكن ما ينجزه بين ثلاث سونيتات أو بين ثمانى تراچيديات، يمكن القيام به بل ينبغى القيام به بين اللحظات الدرامية أو بين أوصاف نفس المحكى (ولو كان بطول رواية «البحث عن الزمن الضائع» أو بطول حكاية من أربع صفحات)، بين جمل مشهد أو حلقة، بين مقاطع شعرية وأبيات قصيدة.

وفى الواقع، ألا يمكن لصدى القوافى، هذا الاصطدام المبهم بين مدلولات متنافرة ظاهراً الذى تحدثه قرابة المقاطع المتكررة، أن يكون قبلاً نواة شبكة؟ هى حالة بينية طبعاً. لكنها من نفس النظام، الذى ألفنا مقابله عندما نقرأ الشعر. وما الذى نواكبه؟ الصور البلاغية، الجوانب السيكلولوجية، الأشكال الفضائية، متتاليات من التحولات الواقعة أو المسرودة (الحبكة)، وما علمى بذلك؟ إن القيم المشار إليها تتحقق بإدماجها أمام عين منتبهة - تلك العين التى «تصغى» - فى كتل استيهامية فيها سيكون ممكناً أن نعزل عن طريق التصفية نواة لاشعورية. هذا ما قيل، لكنه لا يكفى: فبعمله فى إطار العمليات الأولية، يعالج اللاشعور الكلمات على أنها أشياء، ويدخلها قسراً إلى إطارها المادى (الأصوات، الخطوط) قبل أن يستعملها كموضوعات ثقافية (مفردة ومعقدة)، من الملائم، إذن، مراقبة المدلولية. وهل سنقوم أيضاً بتراكب أسماء الأعلام (وهى خالية مبدئياً من المعنى)، وتكرارات الفونيمات (الجناسات الاستهلالية - الحاكيات - الضعيفة) وآثار الطباعة (حروف بارزة، حروف مائلة، بياضات) دون أن ننسى البعد التركيبى للدال: إن الاقتتران التضمينى والتبعية يخضعان لإيقاعات متميزة ويخلقان روابط ذات حدة مختلفة، وأزمنة وأصوات الفعل تتستر بألوان متغيرة، وحروف التعجب تتحايل على الانفعالات، وحتى نفس القارئ يأتى مستثمراً فى تقطيع النص.

٤ - إنجازات وتصورات:

كل هذا نجده مطبقا بفرنسا فى الكتب والمقالات الحديثة، التى ينبغى أن نسجل ونتأسف على عددها المحدود: إن ضرورة امتلاك كفاءة مزدوجة أمر يحقق انتقاءً سيئا، ودون أن يتعلق الأمر بإنشاء قائمة للفائزين، هذه بعض الأسماء التى يبدو أن لها دلالة (المرجعيات المذكورة فى البيبلوغرافيا فى آخر الكتاب بعد الخاتمة). وهنا يفرض هذا التحديد نفسه مقدما: بين كل الذين يعملون إذن فى غياب المؤلف (١٤)، لا توجد أية روابط أخرى إلا الشخصية والمتفرقة، فلا «مدرسة» ولا مجلة متخصصة. بل كانوا ولا يزالون منعزلين أى أنهم جنود غير نظاميين، ينقصهم التكوين المتجانس، وهم بدون مفترضات نظرية مشتركة، فكل واحد منهم يعيد ابتكار منهجه، وأحيانا فى كل مناسبة، الأمر الذى يسمح بفيض فوضوى ملائم للابتكار لكنه أقل قدرة على إحداث حساسيات. وما ينقص أكثر، فى الحقيقة، هو المقترحات النظرية والبرامج المنهجية المطابقة. ولدينا إحساس بوجود فجوة بين جسارة التفسيرات أو القراءات وتواضع التصورات.

بيد أنه إذا كان لابد من ذكر نقاد مشهورين، فلنتعرف بأن شهرتهم قد تأسست فى مكان آخر: فرولان بارت، مثلاً، الذى نهض باتجاهات نظر «قبل - مورونية» فى مؤلفه «ميشلى بنفسه» (سوى ١٩٥٤) - وهو يبحث كما يقول عن «الأفكار القهرية»، وفى مؤلفه «عن راسين» (سوى، ١٩٦٣) سيتميز بطريقة واعدة عن مورون بهذا التصريح الجريء فى ذلك الوقت: «إن التحليل المقدم هنا لا يخص إطلاقاً راسين، بل البطل الراسينى فقط: إنه يتجنب الاستدلال من الأثر إلى المؤلف ومن المؤلف إلى الأثر» (ص ٩)، بعد ذلك بدأ يشق لنفسه شيئا فشيئا طريقا آخر. وفى قراءته المتقنة لقصة سارازين (فى مؤلفه: س/ ز، سوى ١٩٧٠)، لن تساهم المفاهيم التحليلية إلا مساهمة تكميلية، موزعة بين «الشفرات التأويلية» و «الشفرات الرمزية». إنه يستدعى القاموس اللاكانى لكى يطوِّعه، ويجمِّده فى لغة واصفة، وفى النهاية، يبدو اللاشعور كأنه فقد فى نظره كل قدرة على قلب النظام لصالح استيقا التخيل (فى مؤلفه: رولان بارت بقلم رولان بارت، سوى ١٩٧٥). ويبقى أن

بارت كان من الأولين، وفي المستوى الأول، الذين تكلموا اللغة النفسانية «كانها لغة طبيعية»، وكأنه ليس بوسع الناقد، ذلك الإنسان الأمين، أن يتجاهل هذه اللغة في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين.

أما مسار سيرج دوبروفسكى فقد كان نوعاً ما معكوساً: لقد جاء من مكان آخر (من الوجودية السارتريّة) لينتسب إلى التحليل النفسى، ويقدر كبير من التشدد. إن الكتاب الرئيسى الذى خصصه لدراسة «الكتابة والاستيهام عند بروس» (هذا هو العنوان الفرعى لكتابه: «La Place de la Madeleine» دار ميركورد وفرانس، ١٩٧٤) يريد أن يكون - وهو كذلك - «بحثاً نفسانياً» لتجربة لامدلين: «أضيف على الفور: للنص. وأترك للآخرين بروس وشذوذه الجنسى فى سلة المهملات. وكما فعل فرويد أمام غراديفكا لينسن، فنحن أمام كتاب، ولا شئ غيره. وهذا كافٍ بإسهاب» (ص ٢١). إن هذه القراءة تعمل (تغلى وتتقدم)، وتنصب على «أدبية الدليل» لإسنادها إلى الرغبة، وترهف السمع إلى الاستيهامات لأجل إدراجها فى «عصاب»، وتدعو النقد النفسانى إلى أن يصير «شعرية اللاشعور».

يقودنا بروس ثانية بشكل ما، وهو ذو الأثر العظيم الذى قام بالضبط بإخراج كتابة أثر عظيم، إلى مشروع أوتويوغرافى، ولهذا لن نعود إلى روسو: إن چان ستاروبنسكى وفيليب لوجون (١٥) يعتبران من هؤلاء النقاد الذين يعبرون، كما رأينا ذلك، «بكل تلقائية» بلغة فريد، ولو أنهم متعددو اللغات. وعندما نترك جانباً هذا الخطاب الأدبى الخاص عن «اعترافات» روسو حيث يحيل محفل التلفظ صراحة إلى الكاتب، فإننا سنصادف أعمالاً من أنواع جد متنوعة. هناك دراسة المتوالية الروائية: چان بيم «الفرسان الثلاثة»، وریشارد دوران - يوكيل لـ «ملابس السوداء» لبول فيقال، وهناك دراسة حافز فى أثر ما: چان بلمان - نوبل عن «أشجار البرتقال» فى «شترتريه بارم»، وميشال - فرانسوا ديميت عن «امرأة - الحجر» عند لودفيج تايل، وهناك دراسة القصيدة: چان بيم لقصيدة بودلير، وإيف كوهين لقصيدة هوجو وميشو، وهناك دراسة الجنس: جان بلمان - نوبل لحكايات جول فيرن وتيو فيل غوتى، وهناك قراءات للروايات: جان بيير كورنيل لجان لوران،

ونوامى شور وأندرى تارج لموباسان.. أخيرا، ونشير إليه بسبب دقة اهتماماته المنهجية، نذكر مارسيل مارينى لمقالاته التى خصصها لـ«شياطين» و«الكولونيل شابير».

لا يتعلق الأمر هنا إلا بمسار تمثيلى، لبعض الأعلام الذين أبرزوا الثغرات (المسرح؟ المحاولات؟ النصوص السابقة على القرن ١٩.. إلخ). ولهذا لا يمكن أن نقف بأحسن شكل إلا عند مقال منشور مؤخراً من طرف الروائى والناقد برنار بانكوفى عدد « Du secret » من المجلة الجديدة للتحليل النفسى (العدد ١٤ - ١٩٧٦م) وأعيد نشره فى كتاب: « Comme un chemin en automne » غاليما ١٩٧٩م). وموضوعه الصورة فى سجادة هنرى جيمس ويحمل كعنوان ذلك الحرف الإغريقى المكتوب بشكل بارز «*π*». وهذه خطوطه العريضة اعتماداً على هذه الاستشهادات:

«هناك انحراف خاص بالحكى. وأشك شخصيا فى أنه كان يوماً بإمكان أية رواية (....) أن تكون «مبرمجة» مسبقاً، من ألفها إلى يائها، من طرف مؤلفها. وأشك فى ألا تكون كتابة «قصة» هى أيضاً قصة الذى يكتبها، أنها لا تشكل إلا مغامرة بطرقاتها» (ص ٢٥١).

«لن أعرف ما أريد قوله إلا بعد فوات الأوان (....) أكتشف، وأنا أكتب، ما أعرفه قبلاً (.....) فالعملية تنجح فقط وإذا فقط (...) لم أستطع قول أى شئ آخر غير الذى قلته، وإذا كان ما قلته هو بالضبط ما أردت قوله، مع أنى أجهله (....) إن هذه الحركة المزدوجة للخطية (الاكتشاف) وللتدوير (الاستكشاف) يمكن أن تتقدم فى شكل «أوميغا» بخط بارز. فالخطان الأفقيان يعينان الخطى (من الألف إلى الياء). والخط الذى يشكلانه هو تقريباً متصل. ومع ذلك، من هذا إلى ذاك، توجد قطعة (...) وعلامة الدائرى، التقوس الذى يشخص الدورة التى من خلالها يصل المحكى، منطلقاً من الاكتشاف، منتهياً إلى تكرار بدايته الخاصة، إلى الانغراز فى مكانه» (ص ٢٥٢). إن المعنى السرى للأثر «لا يشكل عمقا ينفصل عنه المحكى، ولا لحمة تضمن تماسكه الداخلى، كما أنه ليس بتاتا مجموعة الدلالات (المستخرجة بمختلف

القراءات النقدية) إنه إذا أمكننا القول، تقوَّسها الذى به تشكَّل وتعيَّن نظاما: تقوس الأوميغا. ولهذا تكون كل محاولة لتسميته مشروعة وغير مجدية فى نفس الوقت» (ص ٢٥٥).

وفضلا عن ذلك، فالكاتب، وهو ضحية الوهم يعبر عنه، «قد يتصور أنه يفضى لنا بالأسرار، بسرهِ (...) والنتيجة لن تكون أبداً اعترافا يمكن قراءته من خلال تنميقات ومواريات النص، ولهذا السبب فإنه داخل الأثر لم يعد الكاتب هو الذى يتكلم، إنه، نوعاً ما، النص نفسه - هذا النص، منفلقاً على نفسه، يبعد الكاتب (...) . فكما أن الحلم هو، حسب فرويد، حارس النوم، يمكننا القول إن النص هو حارس الاستيهام، وأنه يضمه، ويلحقه به ويستعمله لكي يجعل منه جوهره الخاص، فاصلا إياه بهذا عن حياة المؤلف.

ومن هنا، فإن النقد النفساني لا حظوظ له فى الوصول إلى موضوعه الحقيقي إلا إذا انطلق من فرضية لا شعور النص (...)» (٢٥٧).

عندما نُخضع للتأمل هذه الملامح التى تخص تحليلا هو فى نظرى «جوهري» (والذى، وإن وضَّحناه جيدا، لم تعمل المائة صفحة السابقة إلا على شرحه قبل الألوان)، فإننا سنقف هنا، عند العبارة الجوهرية، وربما التدشينية، لاشعور النص (١٦).

منذ أواسط الثمانينيات، حاولت تمديد هذا المنهج بالارتكان، بنظام، إلى فكرتين: أولا، سيكون الأخذ بعين الاعتبار إسهامات تداولية الخطاب أكثر حكمة من الأخذ بإحراجات لسانيات الدليل، لأن ذلك سيسمح بالتعرف على أهمية التلفظ (وخاصة قطب «المتلفظ إليه» الذى يتسلم الملفوظات). ومن بعد، ينبغى على كل ناقد أن يجد لنفسه كتابة حقيقية، أن يجد أسلوبه: يجب على هذا القارئ الذى يسبح فى النص لأجل الإصغاء إلى عمل لا شعورى، عندما يأخذ القلم ليتوجه إلى الجمهور أن يكتشف فى نفسه الوسائل (التواطؤ، اللعب، الفكاهة....) لإعادة إلقاء هذا العمل فى لا شعور قرائه الخاصين. وهذا المجهود هو ثمن - الاعتمال - ينبغى دفعه لا فقط من أجل أن يدفع الأثر إلى أن يهذى بل لأن، إذا أردنا، يبقى النص يهذى.

هوامش الفصل السادس:

(١) - ينبغي أن يُفهم قَصْدنا: نحن لا ننكر أهميته (وبالأحرى وجوده)، ولا يتعلق الأمر بالقراءة بدون: ١ - إنه موجود دائما ومسبقاً ضمن «الرحم الانفعالي» (غرين) الذي تنشط القراءة في حضنه، سواء أردنا ذلك أو لم نرده. ٢ - ومن الصعب عمليا بالنسبة إلى هذا القارئ المحترف الذي هو الناقد أن يتجاهله، وأن يتصرف كأنه لا يعرف عنه (أي) شيئا. بل يتعلق الأمر، ما أمكن ذلك ومنهجيا بـ «نسيانه» ساهرين على ألا يعود، تماما كالمكبوت اللاشعوري، فالأمر يتعلق بإنكاره كموضوع رؤية (حضور، أو روح، أو أخ - أب - ابن... إلخ).

(٢) - مازالت تنقصه التسمية الملائمة: «القراءة النفسية»؟ «القراءة التحليلية»؟ التحليل النصي؟ ومنذ أعوام اعتمدت أنا بالذات مصطلح «التحليل النصي» (أحيل إلى كتابي - مابين السطور - ١٩٨٨).

(٣) - الأمر الذي يؤدي، بالاستغناء مؤقتاً عن «الشكل الجميل»، إلى تجريد الخطاب من مكافأة اللذة، أثر الإغراء الذي يفضلته يحول الفنان الانتباه الراعي بعيداً عن الإفرازات حيث تبرز الرغبة المكبوتة.

(٤) - لننسلُ بمنحه بعض الهوامش أو الأصدا: شاعر - بيت شعري وحيد - آلة موسيقية بوتر واحد، أصدا:

Cor d'eau / cprys d'eau, trompes demer (coquilloques loruiss auts de ressac) / trompes (de fallope) de m'ere, cordon ombilial, naissance.. marines, amnios / venus sortant des eaux, etc

(٥) - روني ماجور - الحلم بالآخر - أوبيي مونتينى. ١٩٧٧م.

(٦) - الأمر الذي يدفع كذلك إلى القول - وقد تحدثنا عند ذلك عن ضرورة التكوين التحليلي من أجل التفسير - بأن الناقد هو هذا القارئ الذي يزعم (علانية ويكل صراحة) أنه «عادي في إطار جمهور معين، والذي يتباهى بامتلاكه ردود أفعاله نموذجية بالنسبة إلى معدل قرائه الخاصين..»

(٧) - جاك حسون في، اختلاف التحليل النفسي لثيمة سلالية لـ: هـ فون كليست، ضمن - Ro mantis - عدد ٨ نوفمبر ١٩٧٤، ص - ٥٤.

(٨) - م. مسعود و. ر. خان في «من العجز إلى الانتحار»، المجلة الجديدة للتحليل النفسي - غاليمار، عدد ١٩٧٥ - ١١، ص ١٥٥ - ١٨٠.

(٩) - يمكن البحث عن قراءة نموذجية أخرى، رغم أن الأمر لا يتعلق تماما بنص أدبي (لكن يالها

من خصوصية شعرية!) مراعاة لإلحاحه على «الحرف» - الذى يعنى فى مفهومه اللسانى الظاهر ذلك الدال الصوتى - الخطى - فى «Reve 'a la licorve» الذى قام سيرج لوكير بتحليله فى كتابه «التحليل النفسى» سوى ١٩٨٧، وأعيد طبعه سنة ١٩٧٥، ص ٩٧ - ١١٧

(١٠) - نحيل إلى «قراءة ليريس». كلانكسيك ١٩٧٥م. وإلى «الميثاق الأوتوبيوغرافى السابق الذكر، ص ٢٤٥ - ٣٠٧، وأنا أيضا» سلسلة «شعرية» سوى ١٩٨٦، ص ١٦٤ - ١٨٠. وحول ليريس هناك مسبقا دراسة لأحد المحللين: جان بايتست بونتاليس فى كتابه «بعد فرويد» جويليار ١٩٦٥، ص ٣٠٠ - ٣٢٤ وقد غيّرت وجهة هذا النوع من القراءة فى «بيوغرافيات الرغبة»، سلسلة «كتابة» منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٨٨ م.

(١١) - Ne citons que deux gloses, ici oblige'es: <<p'ere - perp'etuel pet de reptil>> et - <<psychanalyse - lapsus canalise' ou moyen d'un canap'e - lit.>>

(١٢) - جان بلمان - نويل. «التحليل النفسى لحلم سوان؟» مجلة - شعرية» عدد ٨، دجنبر ١٩٧١م، وظهر فى كتابه. «نحو لا شعور النص»، سلسلة «كتابة» منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٧٩، ص ٢٩ - ٦٣.

(١٣) - جان بلمان - نويل: «النص ما قبل النص»، لاروس، ١٩٧٢، ص ١١٤ - ١٣٠، وقراءة نفسانية لوسخ قصائد: صيف بول فاليرى» فى كتاب «دراسات فى النقد التكويني»، فلاماريون، ١٩٧٩ ص ١٠٣ - ١٤٩، وكذا عدد ٥٢ من مجلة «الأدب» الفرنسية، دجنبر ١٩٨٣م.

(١٤) - نشير هنا، مراعاة لنوعيته، إلى العمل ذى الطابع الهجين الذى يلفت النظر فى محتاجه نفسه، وعن قصد: أندري غرين وهو يدرس عمل - بوشكين «La dame de Pique» (المجلة الجديدة للتحليل النفسى، عدد ٤، ١٩٧١) كان يستهدف أولا، من خلال عنوان داخلى «دروس النص»، قراءة المحكى قراءة جدّ ملائمة، ثم يشرع - «من نص لآخر» - فى بحث لمواجهة النتائج المحصل عليها مع الرواية العائلية للكاتب الروسى. ولكل قارئ أن يجنى الرحيق من المكان الذى يناسبه.

(١٥) - نضيف مقالين لـ ف. لوجون، أحدهما سابق والآخر لاحق له «الميثاق الأوتوبيوغرافى»: هناك مقال عن بروسست «الكتابة والجنس» فى مجلة أوروبا «فبراير - مارس ١٩٧١، ومقال عن روسو «المنشطة المكسرة» مجلة «شعرية» - عدد ٢٥، فبراير ١٩٧٦م.

(١٦) - يعبر بـ . بانكو للمحلل أندري غرين هذه الصيغة المقترحة فى «الصورة داخل السجادة» (القرين والغائب - مجلة «نقد» (عدد ٣١٢ مايو ١٩٧٣، ص ٤٠٤)، والأمر الذى له دلالة هو أن نفس العبارة يتم تطويرها فى نفس المرحلة من طرف الناقد (جان بلمان - نويل فى «النص ما

قبل النص» ص ١٣٠): فهذا الميلاد المزدوج - مختلف الاقتراح - يبرر ضرورة الوصول إلى هنا في هذه اللحظة أو تلك. ومن الواجب كذلك وبالخصوص، التفكير من الآن في الانطلاق والاستمرار.... وهذا ما حاولته، وقد صار مفهوما، في «نحو لاشعور النص»، وبالتحديد الفكرة، في ملاحظاتي المنهجية في كُتبي «غراديثا بالمعنى الحرفي»، «الحكايات واستيهاماتها»، «ما بين السطور».

خاتمة

«لكن لنوقف شرحنا، وإلا لجازفنا بأن ننسى أن هانولد

وغراديثا ما هما. إلا من خلق روائى»

(آخر جملة لفرويد فى «الهذيان والأحلام، فى غراديثا - لينسن).

كيف نختم، مادام الأمر يعنى أن نعين توقفا داخل سير متواصل، فى درب يبدو أننا أتينا بالضبط على عبور ممر منه شائك؟ سنقوم بتبين الوضع بكثير من اليقين فى السنوات أو العقود القادمة. وبالنسبة إلى أهمية وصدى المشكل الذى أثرناه، فإن طول البيبلوغرافيا سيعبر عنهما بشكل أطول من أى ملخص. ما يمكن أن نقوم به الآن هو أن نعود شيئا ما إلى الوراء بإعادة وضع موضوع وصفنا فى سياق واسع.

ينبغى أولا التذكير بأن هذه النظرية الشاملة قد لعبت قصدا لعبة النفسانى والأدبى برفعهما إلى منزلة المسلمات، ومعالجتهما كظواهر ثقافية محددة ومستقلة بذاتها تملك قيمة لا تقبل الجدل. وهذا يقودنا إلى القول بأننا قمنا على الوجه الصحيح بنوع من المأسسة النظرية - التى تبدو ضرورتها فرضية للعمل.

لقد قمنا، إذن، بتحديد التحليل النفسى، واعتبرناه، فى اتجاه قريب جداً من فرويد والفرويديين الجدد، مجهوداً يسعى، داخل تصور مادى، إلى خلق مطابقة وتمفصل بين نظرية اللاشعور، ونظرية الجنسية، ونظرية الذات المتكلمة (والكاتبة). لقد كان اختبارا. ونحن نعلم بوجود مراقف مختلفة بهذا الصدد - علم نفس الأعماق (يونج) يستأصل الرغبة الجنسية، وعلى منحدر آخر يسعى التحليل السكيزوفرنى (دولوز وكاتارى) إلى إزالة نواة الذات، ولا يتعلق الأمر هنا بـ «متغيرات» التحليل النفسى، بل بتصورات أخرى عن الواقع اللاشعورى، وأن يكون ممكنا مقارنة الأدب من خلال وجهات نظرهم الخاصة أمر لا شك فيه: يكفى أن يتحقق هذا على أسس واضحة، وبطريقة خالية من اللبس. إن موضوع الأرثوذكسية يصير مشكلاً باطلا

من اللحظة التي نضع فيها التحديدات مع استحضار الأسماء. هكذا: إن التحليل النفسى، هو تيار فرويد وأولئك الذين، وهم متمسكون بمبادئه، ينتسبون إليه. ويمكن «للفرويديين» أن يتلاعنوا فيما بينهم، ولناقشتهم وأحياناً لنزاعاتهم جوانب إيجابية وخصبة. وهنا أيضاً قمنا باختيار، فى اتجاه الدقة اللاكانية، وبحذر، ولا ينبغي أن ينشغلوا بأولئك الذين ينطلقون من فكرة أخرى عن اللاشعور، «النموذج المثالى» أو «الآلى»، ولا أن ينقادوا إلى الاختلاط بهم.

إذا كنا قد حددنا بكل صرامة تيارنا النفسانى، فإننا لم نحدد إطلاقاً مفهوم الأدب. وهذا لا يمنع أن ممارستنا تنتسب إلى إيديولوجية معينة، لسبب هو أنها تعزل قسماً من اللغة، متكلماً أو مكتوباً، بعيداً عن السلطة العامة للكلام وللكتابة، والتي ليست «عامة»، كما نعتقد. إننا نزعم أن «الأدبى» يوجد بالبداية والضرورة التاريخية، بنفس بداية جغرافية أو تشريح إنسانيين. لا شىء أقل إقناعاً، نعرف ذلك جيداً. ولا يتعلق الأمر ببساطة بالقيام فقط بإشارة إلى النتائج السياسية وإلى الشروط الاقتصادية لخبرة تحليلية فى مجتمعنا (الغربى، بل الفرنسى). إن الأمر يتعلق باستحضار مجال أوسع للتفكير - حيث يمكن للسيمااء التحليلية (جوليا كريستيفا) أن تصلح راية للتوحيد - يكون موضوعه «أنماط الدلالة» على اعتبار أنها تعكس وتسمح بتأسيس لغة هى فرويدية واجتماعية فى نفس الوقت، على اعتبار أنها تحولت مع الذات و التاريخ، وهذا التفكير ينحصر فى مستوى آخر، فهو يستدعى فرويد وفى نفس الوقت يستدعى ماركس، وسوسير، لأجل أن يفصل خطاباتهم. وفى الحدود التى يبدو فيها أنه يدرك التاريخ على غرار النفس (وبالتبادل؟)، فهو يستخدم اللاشعور كنوع من النموذج القياسى، الذى يسمح بصياغات استعارية إيحائية ومشاركة. إن دراسة اللغة كممارسة بيشخصية، دالة وفعالة بنفس طريقة العقلية الاقتصادية للمال - العمل داخل الصراعات الخفية التى ينبنى عليها «المجتمع» (أىكون المستثمر ك - المكبوت؟) وأن معالجتها فى نفس الحركة على أنها ظاهرة ضمشخصية، مع احتمال تفكك مفهوم معين لـ «الذات»، سيعنى أن ندخل النظرية الفرويدية فى أحوال تاريخية وفى تبديل إستيمولوجى.

ومثل هذا المشروع، مهما فكرنا فيه، يتجاوز بشكل واسع مشروعنا إلى حد يجعله غير قابل للإدراك^(١).

وهذا لا يعنى أننا نجهل سلطة الإيديولوجيا، وبالأحرى ثقل التاريخ، بل يعنى أننا قررنا العمل على مستوى أقل طموحاً، داخل سياق علمى لحقل حيث التاريخى لا يظهر ولا يتصرف إلا كثقل لغوى وكإرث رمزى. والمبدأ الذى يقوم عليه مشروعنا هو أنه توجد اليوم نظرية للاشتغال النفسى تبدو إجرائية، وأنه توجد اليوم مجموعة من ممارسات الكتابة هى فى نفس الوقت قديمة ولا تزال سارية المفعول، وأنه بإمكاننا بشكل مفيد دراسة الثانية على ضوء الأولى. وإذا كان هناك فى الداخل شكل للطهارة، ملائم قدر ما هو مؤقت فينبغى أن نرى فيه الشرط النظرى، وإلا التطبيقى، للقراءة النفسانية للنصوص الأدبية: من الأفضل أن نشغل بأيد أكثر نظافة بدل الاشتغال بالأيادى الوسخة أو، كما قلنا، بدون أيادٍ على الإطلاق.

إن اللاشعور هو أن يُحكم علينا بأن نكرر ماضياً لا نتذكره، وأن نأخذ كذكرى ما لن يتكرر أبداً فى شكله الأول. والأدب هو مجموع الكتابات المرتبة بوضوح تحت تأثير التخيل (بعيداً عن التقنى والتربوى)، التى تعيد صياغة هذا الماضى الذى يهتز من الحقيقة السرية والتى هى نفسها خاضعة بشكل مباشر لقانون إنكاره. إن قراءة التخيل بالنظر النفسانى تسمح فى الوقت نفسه بمنح النصوص بعداً آخر وبملاحظة الكتابة فى تكوينها وفى اشتغالها. والنشاط الأدبى يفوز من ذلك بنظام معنى إضافى وبالإعتراف به منتهاكاً باعتباره عمل الآخر. والبنىات الكونية والخصوصية التى لا توصف تجد نفسها هنا مثمنة بالكثير من الدقة، ومن ثم بالكثير من العدل.

هل ينبغى البحث فى مكان آخر عن حجج تبرر استعارة نظارة فرويد الممتازة؟
ليس المهم هو تنظيفها بعناية، وأن نحسن وضعها على الأفق؟

هوامش الخاتمة:

- ١ - نحيل أيضا إلى وجهة نظر ليو برزاني في: بولير وفرويد، سلسلة «شعرية»، سوى ١٩٨١م.

معجم المصطلحات:

الانفعال - الانفعالية
Affect - Affectivité
الانفعال: حالة انفعالية تكون في مجموعها موطن كل الإحساسات الإنسانية...
والحال أن هناك تشويشاً بين مفاهيم الانفعال والغريزة والقلق (L'affect, Pulsion, Angoisse) سواء عند س. فرويد أو عند ج. لكان.

المحلل
Analysant - Analys'e
المحلل هو الذات الخاضعة للتحليل. ومصطلح Analysant استعمل مع ج. لكان محل مصطلح Analys'e أو المريض Patient. وهذا المصطلح الجديد يبين بوضوح أن الذات لا تتوجه إلى المحلل لكي «يجرى لها التحليل»، فهو الذي يتكلف بمهمة الحديث والتداعي واتباع القاعدة الأساسية. دون أن يلغى هذا المسؤولية الخاصة للمحلل في تفسير المعالجة.

المحلل
Analyste

المؤلف
Auteur

الأتوبيوغرافية
Autobiographie

أوتوماتية التكرار
Automotisme de r'epitition

هناك في تمثيلات الذات، في خطابها، في سلوكاتها، في أفعالها وفي الأوضاع التي تعيشها، شيء ما يعود باستمرار، أغلب الأحيان دون علم منها،.... وهذه العوذة أو هذا الإلحاح يظهر في شكل أوتوماتية.

الآخر
Autre, Autre

هو الموضع الذي يحمر فيه التحليل النفسي، فيما وراء الشريك المتخيل، ما يحدد الذات مع أنه سابق لها وخارج عنها.

| | |
|---|----------------------------|
| شفرة | Code |
| مفْهَمة | Conceptualisation |
| التكثيف | Condensation - Verdichtung |
| <p>هى الإوالية التى بواسطتها يركز التمثيل اللاشعورى عناصر سلسلة من تمثيلات أخرى. والتكثيف، بعمله الإبداعى، يبدو جديراً بإبراز الرغبة اللاشعورية، لأنه يتمكن بفاعلية وإبداعية من تعطيل الرقابة، مع أنه من جهة أخرى يجعل صعباً قراءة ظاهر المحكى.</p> <p>ومن منظور چاك لاكان، فالتكثيف يشبه بـ «فيض فى الدوال»، وهو اقرب إلى الاستعارة.</p> | |
| الوعى - الشعور | Conscience |
| <p>فى أول تطويقا عند فرويد، الشعور هو موضع النفسية الذى يمكن أن يعتبر معادلاً لعضو من أعضاء الحواس.</p> <p>لكن هذه العبارة تحيل إلى العديد من المعانى تسمح الألمانية بتمييزها على عكس الفرنسية. ففي الإنجليزية: عبارة Consciousness تعنى حالة شعورية، وعبارة - Awareness تعنى الضمير. وفى الألمانية نميز: ١ - Bewubtsein وهى عبارة تشير عند فرويد إلى الوعى وإلى الشعور فى نفس الوقت. ٢ - Gewissen: وهذه العبارة تعنى الضمير.</p> | |
| حكاية | Conte |
| تحويل مضاد | Contre - Transfert |
| <p>مجموعة من ردود أفعال المحلل اللاشعورية تجاه الشخص المحلل، وبخاصة تجاه تحويل هذا الأخير.</p> | |
| النقد النفسانى | Critique Psychanalytique |

D'echiffrement فكّ السُّنن

D'eplacement - Verschiebung النقل

هو عملية مميزة للعمليات الأولية، بواسطتها تنفصل كمية من الانفعالات عن التمثيل اللاشعوري الذي كانت ترتبط به، وتسير نحو الارتباط بتمثيل آخر ليس له بالتمثيل السابق إلا روابط ترابط أقل شدة، إن لم تكن طارئة. وهذا التمثيل الأخير يستقبل، من ثم، شدة ذات أهمية نفسية، بينما التمثيل الأول المنقول كانه مكبوت من جراء هذا الفعل وهذه العملية يعتبرها چاك لاكان مجازا مرسلا m'etonymic

D'esir الرغبة

هى نقصان يسجل داخل الكلام، وهى بصمة الدال على الكائن المتكلم.

Elaboration Secondaire المراجعة الثانوية - الصياغة الثانوية

نعمد الترجمتين أعلاه الأولى يستعملها مصطفى صفوان فى ترجمته لكتاب فرويد «تفسير الأحلام»، والثانية يستعملها ج. طرابيشى فى ترجماته لمؤلفات فرويد.

وهى تعينّ الطور الثانى من عمل الحلم بعد عمليات التكثيف والنقل والتمثيل، وقوامها إخراج المضمون الظاهر للحلم إخراجا منطقيا.

Enonciataire المتلفظ إليه

Eros إيروس

هو مجموع غرائز الحياة فى النظرية الفرويدية. هو إله الحب عند اليونان. وهو مبدأ النشاط ودليل الرغبة، طاقته الليبيدو بالنسبة إلى التحليل النفسى ونقيضه هو تاناتوس إله الموت عند اليونان ومجموع غرائز الموت فى النظرية الفرويدية.

Fiction التخيل

Fantasme استيهام

بالنسبة إلى س. فرويد، الاستيهام هو تمثيل، سيناريو متخيل، للشعور أو لما قبل الشعور أو للا شعور. وهو يستلزم شخصية أو عدداً من الشخوص ويقوم بإخراج مشهدي للرغبة بشكل أكثر أو أقل تنكراً.

الاستيهامية Fantasmatique (La)

الهيرمينوطيقا - التأويلية Herm'eneutique (La)

مثلية Id'ealisation

تقمص Identification

هو تمثل ذات أخرى ينتج عنه أن الذات الأولى تتصرف كالذات الأخرى..

لا شعور Inconscient

هو المحتوى الغائب في لحظة معينة من الوعي، ويوجد في مركز النظرية النفسانية.

وحسب الطوبيقا الأولى، ففرويد يسمي اللاشعور المحفل المكون من عناصر مكبوتة ترفض النفاذ إلى محفل ما قبل الشعور - الشعور. وفي الطوبيقا الثانية تصف عبارة اللاشعور محفل الـ «هذا» Le Ça، وتنطبق جزئياً على محافل الأنا والأنا الأعلى.

وبالنسبة إلى التحليل النفسي المعاصر، فاللاشعور هو موضع معرفة مكونة من مادة لفظية خالية في حد ذاتها من الدلالة، ومنظمة للتلذذ وضابطة للاستيهام والإدراك ولجزء أكبر من الاقتصاد العضوي.

وبالنسبة إلى لا كان، هناك قاعدتان تحكمان مفهوم اللاشعور:

- اللاشعور هو خطاب الآخر - اللاشعور مبين كاللغة.

مأسسة Institutionalisation

تفسير Interpre'tation

هو تدخل المحلل سعياً إلى إبراز معنى جديد فيما وراء المعنى الظاهر الذى يمكن أن يقدمه أحد خطابات الذات.

الغربة المقلقة Inquietante etrangete

إن الغريب المقلق هو كل ما ينبغى أن يُخفى لكنه يظهر. هو هذا الشيء الذى يفاجئنا مع أنه جدد معروف، هو ما يعود إلينا من الخارج مع أنه يعتبر جزءاً من الداخل، هو مكبوت يعود بطريقة فجائية داخل الحياة اليومية كما داخل مشهد الفن ومن أجهة أخرى هناك أشياء لا تبدو غريبة مقلقة فى التخيل، لكنها تصير كذلك لو حدثت فى الحياة. وفى هذا الإطار يدرس س. فرويد التخريفات والأشباح والأشياء الجامدة التى تتحرك..

تلذذ - متعة Jouissance

أسطورة Legende

الليبيدو Libido

كلمة لاتينية الأصل تعنى النزوة، الهوى، الشهوة، الشهية، الحاجة الطبيعية، إلخ، ظلت تعنى عند فرويد قوة الغريزة الجنسية، والطاقة الجنسية، وحددها يونج بأنها طاقة نفسية حيوية.

الأدب Literature

يعرفه جان بلمان - نويل فى مقدمة هذا الكتاب بأنه هو هذا الذى عن طريقه نعى إنسانيتنا التى تفكر وتتكلم، فبشئ فقط كالآدب يمكن للإنسان أن يسائل نفسه وقدره الكونى واشتغاله الاجتماعى والذهنى.

والخطاب الأدبى يفوض قبول فكرة لغة أخرى لم تكن تقول فقط وبالضبط ولا بكيفية حقيقية ما كان يبدو أنها تقوله، فهو ليس رسالة محملة بمعنى واحد واضح، بل هو يمتلك سلطة الإيحاء باللامتوقع وبالمجهول، ومن ثم فالكاتب يتحدث عند الكتابة عن أشياء لا يعرفها بدقة.. يعنى أن المعنى يكون فائضاً فى النص، هذا الذى

لا يحيى إلا إذا احتوى فى دواخله على شىء من اللاشعور.

| | |
|------------------|-----------|
| Manque | نقصان |
| Motif | حافز |
| Mecanisme | ميكانيكية |
| Mythe | خرافة |
| Nom - du - P'ere | اسم الأب |

نتاج الاستعارة الأبوية الذى يسند الوظيفة الأبوية إلى المفعول الرمزي لدالّ خالص والذى فى وقت لاحق. يعين كل ما ينظم الدينامية الذاتية مسجلا الرغبة فى سجل الدين الرمزي.

| | |
|-------------|----------|
| Narcissisme | النرجسية |
|-------------|----------|

حبّ يقود الذات إلى موضع جد خاص، هو الذات نفسها

| | |
|----------|----------|
| Objectal | موضوعانى |
|----------|----------|

الموضوعانى Objectal وليس الموضوعى Objectif. والعلاقة الموضوعانية هى علاقة الذات بموضوع خارجى بالنسبة إليها، والمواضيع فى هذه العلاقة الموضوعانية ليست هى الأشياء، أو ليست هى الأشياء وحدها، وإنما أيضا الأشخاص ومن ثم فإن الليبيدو الموضوعانى هو الليبيدو المنصب على شخص آخر، على حين أن الليبيدو الأبوى هو الليبيدو المنصب على الذات.

| | |
|--------|------------|
| Oeuvre | أثر - آثار |
|--------|------------|

| | |
|--------------|--------------|
| pathographie | الباتوغرافية |
|--------------|--------------|

| | |
|---------------|----------|
| Perlaboration | الاعتمال |
|---------------|----------|

هو عمل، غالبا طويل وشاق، مرصود لتجنّب أن لا يفرق المحلّ فى المقاومة ويرفض الاعتراف ببعض التفسيرات.

| | |
|---|-----------------------------------|
| phallus | الفالوس |
| هو فى الأصل عضو الذكورة وفى التحليل النفسى رمزه أو بديله. | |
| Plaisir | اللذة |
| Pragmatique du discours | تداولية الخطاب |
| Prime de plaisir | مكافأة اللذة |
| Processus Primaires | العمليات الأولية |
| Processus secondaires | العمليات الثانوية |
| Psychanalyse | التحليل النفسى |
| يعرفه جان بلمان - نويل فى المقدمة بأنه جهاز مفاهيمى يعيد تشكيل العمق النفسى، ويشيد نماذج لفك الشفرة. وهو فى نظره، مثل الأدب، قراءة: يقرأ الإنسان فى حياته اليومية وداخل قدره التاريخى، راسماً هدفاً يرمى إلى التوصل إلى حقائق بالحديث عن الإنسان وهو يتحدث. | |
| Psychanalyse textuelle | التحليل النفسى النصى |
| Psychocritique | النقد النفسى |
| Psychologie des profondeurs | علم نفس الأعماق |
| Repr'ersentations inconscientes | التمثيلات اللاشعورية - الممّلات - |
| -Repr'esentants | مقاومة |
| هى كلّ ما يُقاوم فى أفعال وأحاديث المحلّل ولرج هذا الأخير إلى لا شعوره. | |
| Roman Familial | الرواية العائلية |
| إنها استيهام خاص، فيه تتصور الذات أنها مولودة من آباء من مستوى اجتماعى رفيع، بينما يحتقر آباءه الحقيقيين، معتقداً أنه متبنّى من طرفهم. | |
| Schizo - analyse | التحليل السيكونوفرى |

| | |
|---|--------------------|
| Semanalyse | السيمياء التحليلية |
| signe | الدليل |
| Signifiante | المدلولية |
| Signifié | المدلول |
| Sub - conscient | ما قبل - الشعور |
| Subjectivité | الذاتية |
| Sublimation | الإعلاء |
| ميكانيكية تركز إلى أنّ نشاطا غريزيا يحول عن مجراه نحو غاية جديدة لا جنسية، ونحو أشياء مثمّة اجتماعيا. | |
| Surmoi | الانا الأعلى |
| symbolique | رمزي |
| Tabou | محرم - تابو |
| Thématique | ثيماتية |
| Théorisation | صوغ نظري |
| Transnarcissique | عبر - نرجسي |

أعمال س. فرويد:

- ١ - Abre'ge' de psychanalyse- (1938) puf, 1970.
وهذا العمل ترجمه جورج طرابيشي إلى العربية تحت عنوان «مختصر التحليل النفسي»، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
- ٢ - L'Avenir d'une illusion (1927), puf., (1932), 1971.
وهذا العمل ترجمه إلى العربية جورج طرابيشي تحت عنوان «مستقبل وهم»، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
- ٣ - Cinq lecons sur la psychanalyse. (1904, 1909) Payot (1950),-
1971.
ترجمه إلى العربية ج. طرابيشي تحت عنوان «خمسة دروس في التحليل النفسي» منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
- ٤ - Cinq psychanalyses (1905- 1918) Puf (1954). 1970.
٥ - De'lire et re'ves dans la "Gradiva" de jeusen (1907)
NRF (1949), 1971. novalles traductions 1986.
- ترجمه نبيل أبو صعب، وراجعه صياح جهيم تحت عنوان «الهذيان والأحلام في قصة غراديفا لجنسن»، منشورات وزارة الثقافة بدمشق.
- ترجمه ج. طرابيشي إلى اللغة العربية تحت عنوان «الهذيان والأحلام في الفن»، دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٩٧٨، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.
- ٦ - Essais de psychanalyse - (1915 - 1923), Payot (1951), 1971 .
٧ - Essais de psychanalys applique'e - (1906 - 1923). NRF (1933),
1971.
- ٨ - Inhibition, symptome, angoisse (1926), puf (1951), 1968.
ترجمه ج. طرابيشي إلى اللغة العربية تحت عنوان «الكف، العرض، الحصر»، - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
- ٩ - L'Interpretation des re'ves - (1900), PUF, (1926), 1971.

ترجمه إلى اللغة العربية مصطفى صفوان وراجعه مصطفى زيور - تحت عنوان «تفسير الأحلام» مجموعة - المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي، بإشراف الدكتور مصطفى زيور - دار المعارف - القاهرة.

١٠. Introduction a' la psychanalyse - (1915 - 1917), Payot (1951). 1973.

ترجمه إلى اللغة العربية ج. طرابيشي تحت عنوان «مدخل إلى التحليل النفسي»، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت، لبنان.

١١ - Malaise dans la invilisation - (1929), PUF (1934), 1971.

ترجمه إلى اللغة العربية ج. طرابيشي تحت عنوان «قلق في الحضارة» منشورات دار الطليعة للطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

١٢ - Mavie et la psychanalyse - (1925), NRF (1950), 1970.

- ترجمه إلى اللغة العربية ج. طرابيشي تحت عنوان «حياتي والتحليل النفسي»، دارالطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

- وترجمه كذلك إلى اللغة العربية كل من الدكتور: مصطفى زيور والدكتور عبدالمعظم المليجي، وقد ظهرت هذه الترجمة في مجموعة «المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي» تحت عنوان «حياتي والتحليل النفسي».

١٣ - Me'tapsychologie - (1915 - 1917), NRF (1952), 1968.

ترجمه إلى العربية ج. طرابيشي تحت عنوان «علم ما وراء النفس»، منشورات دار الطليعة - بيروت - لبنان.

١٤ - Maise et le monoth'eisme - (1939) NRF (1948), 1971.

ترجمه إلى العربية ج. طرابيشي تحت عنوان «موسى والتوحيد»، منشورات دار الطليعة - بيروت - لبنان.

١٥. Le Mot d'esprit et sesyropports avec L'Inconscient (1905), NRF (1930), 1969.

١٦. La Naissance de la psychanalyse - (1950). PUF (1956), 1973.

١٧. N'evose, psychose et perversion - (1894 - 1924) PUF, 1973.

ترجمه ج. طرابيشي إلى العربية تحت عنوان: «العُصاب، الذهان، الانحراف الجنسي»، منشورات دار الطليعة - بيروت - لبنان.

١٨ - Nouvelles conferences sur la psychanalyse - (1932),

NRF (1936), 1971.

ترجمه إلى اللغة العربية ج. طراييشي تحت عنوان «محاضرات جديدة في التحليل النفسي»، منشورات دار الطليعة - بيروت - لبنان.

Psychopathologie de la vie quotidienne - (1901), Payot (1948), - ١٩
1971.

٢٠. Le reve et son interpretation - (1901), NRF (1925) 1969.

ترجمه إلى اللغة العربية ج. طراييشي تحت عنوان «الحلم وتأويله»، منشورات دار الطليعة، بيروت - لبنان.

٢١ - Un souvenir d'enfance del. de vinci (1910), NRF (1927),
1977.

٢٢. La Technique psychanalytique - (1904 - 1918), PUF (1953),
1970.

٢٣. Totem et tabou - (1912), Payot (1947), 1971.

ترجمه ج. طراييشي إلى اللغة العربية تحت عنوان «الطوطم والحرام»، منشورات دار الطليعة بيروت - لبنان.

٢٤ - Trois essais sur la theorie de la sexualite' (1905) NRF, 1962.

ترجمه ج. طراييشي إلى اللغة العربية تحت عنوان «ثلاثة مباحث في نظرية الجنس»، منشورات دار الطليعة - بيروت - لبنان، ١٩٨١.

٢٥ - vie sexuelle (1907 - 1931) PUF, 1970. La

ترجمه إلى اللغة العربية ج. طراييشي تحت عنوان «الحياة الجنسية»، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

ملحوظة: إن المرجعيات المعتمدة في الكتاب، من أعمال س. فرويد، تعود إلى التواريخ المسطر عليها هنا، وهي ترجمات قديمة أحيانا، ويحدث أن استشاداتنا تكون متغيرة قليلا بالنسبة إلى النص المعتمد - جان بلمان نويل.

أعمال جان بيلمان - نويل:

- 1- "paul valéry devant la critique de notre temps" paris, garnier, 1971.
- 2 - "La texte et L'avant - texte", "L", Larousse, 1972.
- 3 - "La po'ésie - philosophie de Milosz (essai sur une 'écriture)" Bib liothèque du xx^e siècle" Klincksieck, 1977.
- 4 - "Vers l'inconscient du texte", "Ecriture", PUF, 1979.
- 5 - "Gradiva au pied de la lettre", "Le fil rouge", PUF, 1983.
- 6 - "Les contes et leurs fantasmes", "Ecriture", PUF, 1983.
- 7 - "L'Auteur encombrout (stendhal/ Armance)", "Objet", "Presses universitaires de lille, 1985.
- 8 - "Biographies du désir (stendhal, Breton, leiris)", "Ecriture", PUF, 1988.
- 9 - "Interlignes - Essais de textanalyse" "Objet", Presses universitaires de lille, 1988.
- 10 - "Le quatrième conte de Gustave Flaubert", "Le texte R'ève", PUF, 1990.
- 11 - "Diaboliques au divan", "Soupçons", Toulouse, Ed. Ombres, 1991.
- 12 - "Interlignes 2 (explorations textanalytiques)", "objet", Presses universitaires de lille, 1991.

فهرست الكتاب

صفحة

- ٥ تنبيه (المترجم)
- ٧ المقدمة: القراءة من خلال التحليل النفسى
- ١٣ الفصل الأول: القراءة مع فرويد.
- ١٤ ١ - ماذا يعنى «تطبيق» التحليل النفسى؟
- ١٦ ٢ - درس فى القراءة.
- ١٩ ٣ - الكتابات الفرويدية.
- ٢٣ الفصل الثانى: قراءة اللاشعور.
- ٢٤ ١ - عمل الحلم.
- ٢٨ ٢ - حيل اللغة.
- ٣١ ٣ - اللعب بالكلمات.
- ٣٩ الفصل الثالث: أن يقرأ الإنسان نفسه بنفسه.
- ٤٠ ١ - التمثيلات اللاواعية فى النص الأدبى.
- ٤٣ ٢ - مكافأة اللذة والإعلاء.
- ٤٦ ٣ - عن التقمص.
- ٥٠ ٤ - «الم» الكتابة.
- ٥٢ ٥ - الورقة والأريكة.
- ٦١ الفصل الرابع: قراءة الإنسان.
- ٦٢ ١ - الإنسانى والرمزى.
- ٦٦ ٢ - خرافات وحكايات وأساطير.
- ٦٩ ٣ - النماذج والحوافز.
- ٧١ ٤ - الأجناس الأدبية.
- ٧٤ ٥ - نماذج أخرى.

صفحة

| | |
|-----|---|
| ٨٣ | الفصل الخامس: قراءة الكاتب الإنسان |
| ٨٤ | ١ - أن تُدرج في ما (مَن) تقرأه..... |
| ٨٧ | ٢ - التحليل النفسى للمؤلف: الأسلاف الكبار..... |
| ٨٩ | ٣ - النقاد النفسى - البيوغرافيون..... |
| ٩١ | ٤ - مواقف النقد النفسى البيوغرافى |
| ٩٣ | ٥ - مشكل المؤلف..... |
| ٩٥ | ٦ - حالة الأوتوبيوغرافية..... |
| ٩٧ | ٧ - النقد النفسى، أو، شارل مورون، ١ |
| ١٠٣ | الفصل السادس: قراءة النص..... |
| ١٠٤ | ١ - «غرايفاء» أمى خطوة الراقصة أم خطوة المتعبدة؟..... |
| ١٠٦ | ٢ - التدخّل فى النص..... |
| ١١٠ | ٣ - من «الترابطات» إلى «التراكبات»، « مورون ٢..... |
| ١١٣ | ٤ - إنجازات وتصورات..... |
| ١٢١ | خاتمة |
| ١٢٤ | معجم المصطلحات |
| ١٣٣ | لائحة بأعمال س. فرويد..... |
| ١٣٧ | لائحة بأعمال جان بيلمان - نويل..... |

رقم الايداع بدار الكتب
٩٧ / ٨٩٥١

الترقيم الدولي I.S.B.N
977 — 235 — 864 — 6

هذا الكتاب...

(التحليل النفسى - فى تياره «الفرويدى» خاصة - فن أكثر منه علماً، يستند إلى نظرية وممارسة، بلا تقنيات إلزامية أو شفرات شفافه أو نماذج مؤكدة، وبلا تصورات أحادية التكافؤ أو معالم ثابتة..

وعليه، فمن الوهم الحديث عن التحليل النفسى، عبر حواش بسيطة. فلن يجد القارئ، فى هذا الكتاب، عرضاً منظماً لمفاهيم التحليل النفسى؛ فهو ليس أكثر من قراءة ناقد يحلل نفسياً أكثر منه محللاً متمرساً).

مجموعة قراءات تبدأ من «اللاشعور» وتنتهى بـ «النص».... تمثل محور هذا الكتاب.

To: www.al-mostafa.com